الفصل الأول

الفلسفات العقلية

١ . مبادئ الحقيقة لدى قدماء الفلاسفة العقليين ـ ٢ . مبادئ الحقيقة لدى الفلاسفة العقليين المعاصرين .

١ — مبادىء الحقيقة لدى قدماء الفلاسفة العقليين

الآراء التى أبداها الفلاسفة فى مبدأ الحقيقة قليلة ، وهم لم يفعلوا ، منذ ثلاثة آلاف سنة ، سوى تكرار نظرياتٍ واحدة ، كما يظهر ذلك بسهولة من خلاصة مبادئهم .

وقد يبدو من القِحَة أن يُحاوَل عَرْضُ تاريخِ مختلف المناهج الفلسفية فى بضع صَفَحات ، غير أن بناء هذه المناهج إذا كان مُعَقَّداً فى الغالب فإن مبادئها المرسومة تظلُّ موجزة إلى الغاية ، وتقاس هذه المناهج بمعابد الهند الضخمة المؤلفة من سلسلة أُطُرٍ واسعة ذاتِ مركزٍ واحد ، ويتوسط هذه الأُطُرَ مِحْرابٌ مشتمل على صورة الإله المرهوب ، ولا تنفع الأُطُر العظيمة التى تحتويه إلا للإحاطة بالآلهة النافذة .

ونحن إذا ما أعرضنا عن الأُطُر التى تَنْفَع لتزيين معابد الفكر الفلسفىّ اكتفينا بصَفَحات قليلة لاستخلاص المبادىء التى تَكَوَّنَت من الحقيقة فى غُضُون الأجيال .

وقبل ظهور المسيح بعدّة قرون كان هِرَقْلِيتُ الإفيزيُّ يرى الحوادثَ تجرى فى سَيْلٍ أبدىّ[1] ، أى مستمرةَ الحركة ، ويراها ليست إيَّاها ولكنها تكون إياها ، وهذا بعينه ما كرَّره بعده بزمنٍ هيغِلُ وكثيرٌ من الفلاسفة المعاصرين .

وكان أنا كْزِيماندر يقول باشتقاق جميع الموجودات من حيواناتٍ أقدمَ منها ، وليس غيرَ هذا ما تقوله نظرية التطور الحاضرة .

وكان پارْمِينِيد يُصرِّح بأننا نَعرِف الظواهر ، لا الحقائق ، وكان پروتاغوراس يقول : « إن ما يَدْعوه الإنسانُ بالحقيقة هو حقيقةُ نفسه ، أى المظهرُ الذى به تبدو الأشياء له ، فإذا عَدَوْتَ هذا الإدراكَ الشخصىَّ لم تجِد أية حقيقة » ، ولم يَصْنَع كَنْتُ غير توسيع هذه الأقوال .

وكان دِيمُوقْرِيط يعتقد ، كما اعتقد لِيبْنِتْزُ فيما بعد ، أنه لم يُوجَد شىء فى عقلنا قبل أن يكون فى حواسِّنا ، فبذلك تقوم الحقيقة عند كل شخص على ما توحيه إليه حواسُّه .

ويُضيف المفكرون المعاصرون شروحاً مهمة إلى تلك المبادىء كما هو واضح ، ولكن من غير أن يُغيِّروا شيئاً فى الأفكار الأساسية ، ومما هو جدير بالذكر أن تكون الروح البشرية ، وقد حُرِمَت عَوْنَ التَّجْرِبة ، قد بلغت ذلك الشأو .

٣ — مبادىء الحقيقة لدى الفلاسفة العقليين المعاصرين

نُبْصِر بتقسيمنا لوُجُوه المنطق أن مبادىء أعاظم الفلاسفة حَوْلَ الحقيقة ذاتُ مصدرَيْن مختلفَيْن : أحدهما عقلىّ والآخر عاطفىّ ودينىّ .

---

(١) يلخص فكر هرقليت فى قوله « إن كل شىء يجرى » ، ولكننى لم أجد هذا القول فيما انتهى إلينا من آثار هذا الفيلسوف .

وكان الحكم للنظريات العقلية منذ عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر، وكانت المناهج المُجرَّدة من المصدر العقلي قد هُجرت تماماً، ثم عادت إلى الظهور ثانيةً في أيامنا مُسمَّاةً بأسماء مختلفة، ولاسيما باسم المذهب الوِجْداني .

وليس تقسيمُ الفلسفة إلى عقلية ولا عقلية أمراً مطلقاً مع ذلك، فيشتمل أشدُّ الفلسفاتِ عقليةً على كثير من العناصر الدينية، فتجد فلسفةَ كَنْتَ مُشْبَعةً منها، وفي الغالب ترى أنصارَ المذهب الوِجْداني يأتون بأدقِّ البراهين العقلية .

ولْنَطْرَح التفريقَ بين مختلف مصادر الفلسفات التي صِيغَتْ منذ عصر النهضة ولْنَبْحَث باختصار في مبادىء أهمِّ ممثليها .

أَجَلْ، يمكن عَدُّ بيكَنَ وديكارْت وكَنْتَ من أكثر الفلاسفة العقليين تأثيراً في أفكار الناس، غير أنهم أثَّرُوا بمناهجهم أكثر من تأثيرهم بالحقائق المرسومة .

حَمَل بيكَن على مبدأ اتخاذ القدماء حُجَّةً، ومن ثَمَّ على جميع فلسفة القرون الوسطى التي كانت تقتصر على تكرار نظريات أرسطو، فبيَّن أن التَّرَصُّد أنفعُ من تفسير الكتب، ونَشَر الحَذَر من الآراء المُسَلَّم بها قبلاً كالتي يُعْزَى بها إلى الطبيعة بعضُ المقاصد بأن يقال، مثلاً، إن الشمس إذا كانت تُنير فلأنَّها خُلِقَتْ لتَهَب لنا النور، ومما أوصى به، أيضاً، ألاَّ يُنْتَقل من الخاصِّ إلى العامِّ، وأما مابعد الطبيعة، التي يَرَى هذا الفيلسوفُ الكبير أنها تَدُور حَوْلَ دائرةٍ بعينها على الدوام، فإنه يُقْصِيها إلى حَقْل الإيمان الذي لم تَخْرُج منه قَطّ .

ولم يَلْبَث نفور بيكَنَ من مابعد الطبيعة أن عَمَّ إنكلترة فدام إلى أيامنا، فكان هُوبس يقول، مُكَرِّراً رأياً قديماً ذكرناه آنفاً، إننا نَعْرِف الأشياء بإحساساتنا

وحدها ، فيرى أن الذى لا يكون محسوساً كالروح أو الإله أو ما إليه لا يمكن أن يكون موجوداً ، بل يُعتقد وجوده فقط ، وأن الروح البشرية هى مجموعة إحساسات فُنفكّر بضمّ إحساساتٍ إلى أخرى ، أى بأوهامٍ مُودَعة فينا من العالَم الخارجىّ بواسطة حواسّنا ، وأن الكَوْن الحقيقىّ يظلّ مجهولاً لدينا إلى الأبد ، وأن الأفكار هى نتيجةُ إحساس ، أى مُقْتَطَعَةٌ من إحساس ، وأن المنفعة هى أساس الأخلاق .

وتدلّ تلك الملاحظات المختصرة إلى أن خطوط الفلسفة الحديثة كانت ترْتَسم بوضوح ، وكان ديكَارْتُ أشهرَ ممثليها فى القرن السابعَ عشرَ ، وكان له الأثرُ البالغ بمنْهاجه أكثرَ مما بفلسفته ، وكان من شأن مذهبه العقلىّ ، الذى يجب أن نعتقد به ماهو بَيّنٌ فقط ، أن يَحْفِزه إلى رَفْض ماهو دينىٌّ وما هو أُعْجُوبِىٌّ ، أى إلى ردّ ما حاول تسويغَه بالعكس ، ولكن هذا الفيلسوف العَلاَّمة لم يَألُ جُهْداً فى الدفاع عن الاعتقاد بالخالق وحِلْمِهِ ، وما أقامه من البراهين حول وجود الله فقد قام على المبدأ القائل بموجودٍ كامل لاحَدَّ له وعلى ضرورة وجود سببٍ للأسباب مما يَبْدُو ضَعْفُه فى الوقت الحاضر .

ومافى فلسفة دِيكارت من الناحية الدينية يُسَوِّغ ماقلناه آنفاً عن المناهج التى قيل إنها عقلية صِرْفَةٌ مع أنها تشتمل على عناصرَ دينيةٍ كثيرة .

وليست النواحى الدينية فى فلسفة دِيكَارْت هى التى لا تُقْبَل وحدَها فى الوقت الحاضر ، بل إن مما لا يُدَافَع عنه ، أيضاً ، قولَ هذا الفيلسوف بآليَّة الحيوانات وآراءه فى الحرية وتقسيمَه للعواطف وخلطَه الفِكْرَ بالإرادة الخ .

ولا يناضَلُ بأكثرَ من ذلك عن نظريته فى البَدَاهة كمقياسٍ ، فوضوحُ الفكر ليس ضماناً لحقيقة هذا الفكر .

وفى زمن ديكارت ، حين كانت التقاليدُ مسيطرةً ، بدَتْ آراءٌ كثيرةٌ له جريئةً جدًّا ، فقد كانت تؤدّى ، بالحقيقة ، إلى رفض مبدأ السلطة المهيمن إذ ذاك ، وهكذا غدا ديكارت أباً لمذهب الشكّ الحديث وللمذهب العقلىّ الحديث .

ولا ضَيْرَ فى أن يكون قد أثْبَت ، كما لاحظه فاغيه ، عَدَمَ إخلاصه لمنهاجه بسَيْره وراء خياله فى بَدِيهيّات عقله ، فإذا كان من الصواب أن قِيلَ « إنه صار يؤمن بكلّ شىء بعد أن شكّ فى كلّ شىء » فإنه شَكّ حين كان علم اللاهوت لا يَحْتَمِل الشّكّ ، فكان هذا تقدماً عظيما يَعْسُر فَهْمُ أهميته على أفكارنا التى تَحَرَّرَت من نِيْر السلطان الدينىّ .

وتتجلّى عظمةُ شأن ديكارت ، على الخصوص ، عند النظر إلى أن خلفاءه ساروا على الطريق الواسعة التى فَتَحها .

وكُنْتُ أشهرُ أولئك ، ولم يكن كُنْتُ أولَ من كشف نِسْبِيَّة معارفنا كما قُلْتُ ذلك آنفاً ، و بدا إبداعه فى إثبات تلك النِّسْبِيَّة بمنطقٍ يفوق منطق من ظهروا قبله ، ولم يَحْدُث ، قطّ ، أن أُثْبت بمثل حرارته أن أَهَمّ مبادئنا ، ولاسيما مادار منها حَوْلَ الزمان والمكان ، مُقَيَّدٌ بوجوه إدراكنا ، والعالَم الذى نَعْرِفه هو ، عند كُنْتَ ، وليدُ فكرنا ، فمن المتعذر أن نجاوز حدودَ مُعْطَيات التَّجْرِيب المنظمة بواسطة الإدراك ، فالإنسانُ لا يبصر الطبيعةَ إلا بالانطباعات التى تأتيه من الطبيعة مُحَوَّلةً بروحه[1] .

---

(١) إليك تلخيص أستاذ الفلسفة ، مسيو لاشليه ، لفلسفة كنت :

« ذهب كنت فى كتابه المهم إلى ما يأتى :

« أولا : إن العالم الذى نعرفه أى العالم الخارجى أو الطبيعة وعالم شعورنا الباطنى ليس سوى أنظمة للحوادث ، أى للأشياء التى تبدو لنا ، لا للأشياء بعينها . =

ولو وَقفَ كنْتُ عند هذا التعليم المرسوم فى كتابه « انتقاد العقل المَحْض » لكان عقليًّا مَحْضاً ، ولكن هذا المفكرَ المشهورَ وَرِثَ ، كجميع رجال عصره ، نفسيةً دينية كان عليه أن يُرْضِيَها ، فوضع كتابه « انتقاد العقل العملىّ » ، وهذا الكتاب قد أعان على إثبات إمكان تنضُّدِ أنواعٍ المنطق فى النفس الواحدة ، كالمنطق العقلى والمنطق الدينىّ على الخصوص ، وذلك كما فصّلْتُ فى كتاب آخر ، فنَجَم عن تلك الأنواع ظهورُ نظرياتٍ متناقضة .

وأَعْرَضَ كنْتُ فى كتابه « انتقاد العقل العملىّ » عن المذهب العقلىّ منتحلاً عَملَ العالِم اللاهوتى ، فقد تكلم فيه عن أُسُس الأخلاق مفترضاً أننا أحرارٌ لضرورةِ هذه الحرية فى اختيار الخير أو الشرّ ، وعند كنْتَ أنه لابُدَّ من الثواب أو العقاب ، والثوابُ والعقاب إذ لم يتحققا فى هذه الدنيا وَجَب أن يكونا فى حياة آخرة ، وروحُنا لكى تخْضَعَ لُحكْمِ حاكمٍ ، وجب أن تكون خالدةً إذَنْ .

وبَدَتْ ضرورةُ الثواب والعقاب لكَنْتَ دليلاً قاطعاً على وجود الله .

واليوم لا تجِد مدافعين كثيرين لتلك المبادئ الدينية التى ذكرناها فى فصل

= « ثانياً : إن مصدر الصور التى تبدو بها تلك الحوادث ، أى المكان والزمان ، هو فى أنفسنا ، والروح هى التى تفرضه على المادة الناشئة عن الحواس .

« ثالثاً : إن مصدر السنن (المقولات) التى تبدو بها تلك الحوادث موضوع تفكير ، بعد أن تبدو بادية ، كقانون السببية مثلا ، هو روحنا ، وإدراكنا هو الذى يحمل الحوادث التى تتتابع فى الزمن على الخضوع لنظام السببية ، وبفضل تلك السنن يمكن أن يعبر عن صلات الحوادث بعضها ببعض فى حقائق عامة ضرورية .

« رابعاً : وهو الأخير : إن كنت ، بعد أن قال بإمكان معرفة الحوادث على ذلك الوجه ، أثبت فى فصل « المنطق الصاعد » ، الذى هو أهم قسم فى كتاب « الانتقاد » ، استحالة معرفة اعتقادية لما ليس من الحوادث » .

آخر ، فعلماء اللاهوت وحدَهم هم الذين يستطيعون أن يقولوا مدافعين بوجوب وجود الله ليكون العالَمُ عالَمَ أخلاق .

وسلك خلفاء كَنْتَ سبيلَ المذهب العقليِّ أكثر مما سلك مع اعتقادهم وجودَ إلهٍ واحد وإنكارهم الوحيَ ، وهم قد حاولوا مثله استخراجَ نتائجَ عمليةٍ من فلسفتهم ، ومما قاله هِيغِل أن الإنسان سَيُحِلُّ فى نفسه ، فى نهاية الأمر ، الإرادةَ العامة محلَّ الإرادة الخاصة ، فعلى الدول القوية أن تَضُمَّ الدولَ الصغيرة إليها ، وما انتصارات الشعب فى الحرب إلا دليلٌ على أفضلية هذا الشعب ، ودرجةُ قوة هذا الشعب تُعَيِّن حقوقَه ، والحربُ ، عند هذا الفيلسوف ، أمرٌ أبديٌّ .

ومن المعلوم أن أفكار هِيغِل ونظريات خلفائه أثَّرَت كثيراً فى السياسة الألمانية ، فكان شُوپِنْهاوِر يَعُدُّ العالَمَ مَسْرَحَ ذَبْحٍ ، غير أن طبيعة شُوپِنْهاوِرَ المنفعلة كانت تَحْمِله على القول بالتَّجَرُّد والزهد ، وإلى عكس هذا ذهب تلميذه نِيتْشِه فقال بأخلاق العُنْفِ داعياً الأخلاقَ النصرانية فى الزهد ، التى يَدْنو شُوپِنْهاوِرُ منها ، بأخلاق العبيد ، وعند نِيتْشِه أن الشعر الدينىَّ يختلط بالفلسفة .

ومما ترى فى الغالب أن الفلاسفة المذكورين آنفاً مُشْبَعُون من المناحى الدينية ، غير أنهم ينتحلون أدلةً عقلية على الدوام .

ونشأ عن ذلك السَّيْر نحوَ المذهب العقليِّ فوزُ الشروح العقلية من غير نظر إلى العناصر الدينية والعاطفية الملازمة لطبيعتنا ، وظلَّ ڤولتيرُ وديدِرُو وألْباخُ وهِلْڤِيسْيُوسُ وكُنْدِيّاكُ وجميعُ فلاسفة القرن الثامنَ عشرَ من أنصار المذهب العقلى وحدَه ، وكان رُوسُّو من شواذِّ الكُتَّاب النادرين فى ذلك .

وأدّت النظريات العقلية أيام الثورة الفرنسية إلى محاولة تجديد المجتمع على أساس جديد كما هو معلوم .

وعلى ما مُنِيَت به هـذه المحاولة من فَشَلٍ استحوذت الفلسفةُ العقلية على مُعْظم القرن التاسعَ عشرَ ، فشاطر كُونْتُ وَتِينُ ورِينَانُ ثِقَةَ أسلافهم بأنوار العقل .

ولـكن استخفاف المذهب العقليِّ الفلسفيِّ بأهمِّ عناصر طبيعتنا كلما زاد بَدَا عَجْز هـذا المذهب عن تفسير بعض المسائل النفسية ، فأوجب هـذا انتشارَ الفلسفات اللاعقلية التى سنبحث فيها عما قليل .

الفصل الثاني

الفلسفات الوجدانيـــة

١ . الفلسفات العاطفية والدينية القديمة ــ ٢ . بعث الفلسفة الوجدانية ــ
٣ . نوعا الوجدان : الوجدان العاطفي والوجدان العقلي .

١ ــ الفلسفات العاطفية والدينية القديمة

لم يكن العقلُ قاعدةَ الفلسفة في كلّ وقت ، فقـد استندت الفلسفة ، كعلم اللاهوت ، إلى عناصرَ عاطفيةٍ ودينيـة زمناً طويلاً ، ولذلك لم تأت الوِجْدَانِيَّةُ الحديثة العالَمَ بشيء جديد .

وكان الخلاف بين الوِجدان والعقل قد شغَل بالَ المفـكرين في زمن سقراط ، فقد أثبت هـذا الأخيرُ شأنَ ما سُمِّيَ بعد طويلِ زمنٍ باللاشعور ، وذلك بوَصْفِه المُتَفَنِّنِين والشعراء بالحماسة « المشابهـة بعضَ الشَّبَه لحماسة العَرَّافِين الذين يجعلون الأشياء تقول مالا يفقهون » ، لا بالحِـكْمَة .

وتلك النظرية ، التي عَرَضها أفلاطون في ثنائه على سقراط ، قريبةٌ من المذهب الوِجداني الحديث ، وتلك النظريةُ قد اتخذها كثيرٌ من المفـكرين في القرون

الوسطى كالرياضيِّ كَرْدان والطبيبِ بَراسِلْز ، وهؤلاء ، كبعض الفلاسفة الحاليين ، يَعُدُّون الوِجدان أرفعَ من العقل .

والواقع أن للعاطفة والعقل ، المُعبِّرَيْن عن احتياجاتٍ للنفس مختلفةٍ ، أنصاراً على الدوام ، فالعاطفةُ هى المُفَضَّلة على العقل لدى الشعراء والمُتَفَنِّنين ، والعقلُ هو المُفَضَّل على العاطفة لدى العلماء ، ويعيش الشعراء والمتفننون فى دائرة المعتقد على الخصوص ، ويعيش العلماء فى دائرة المعرفة على الخصوص .

وتَقَدَّمت العلوم فأصبحت الفلسفة عقليةً صِرْفَة ، تقريباً ، منذ زمن دِيكارْت كما ذكرتُ ذلك آنفاً ، والعقلُ إذ أقام التجربة والملاحظة بالتدريج مقام القول المَرْوِيِّ ، والعقلُ إذ رَفَض كلَّ علمٍ لِلاَّهوت والمعتقد ، وَسَّعَ آفاق المعرفة ، ودائرةُ المشاعر إذ عُدَّت من الطِّراز الأدنى تُرِكَت للأدباء والشعراء فَبَدَا الخِلاف بين عالَم المعتقد وعالَم المعرفة تامًّا .

ووَجَب الركوع أمام النتائج التى أسفر عنها العلم ، غير أن كِبار الفلاسفة العقليين لم يكونوا شعبيين مع عظيم الاحترام لهم ، فلم يَشْعُر الأدباء والمتفننون بأنهم يَقْدِرون على استلهامهم .

وعلى ما فى المذهب العقليِّ من نقصٍ دام هذا المذهبُ حتى اليومِ الذى أُبْصِرَ فيه إمكانُ مقاومته ، ومن المحتمل أن كان أهمَّ مناهضةٍ له ما قام به جان جاك رُوسُّو من حيث لا يَدْرِى ، فمع أن روسُّو زَعَمَ استنادَ فلسفته إلى عناصرَ عقلية لم يَدْعَمْها فى الحقيقة ، بغير دعائمَ عاطفيةٍ ودينية .

وفى ذلك الخَلْط سِرُّ نجاح رُوسُّو ، وهذا الكاتب الشهير لم يَنَلْ حُظْوَةً بمناقشاته الفلسفية الضعيفة ، بل بحماسِيَّاته العاطفية ، وبمواعظه فى العَوْد إلى الطبيعة ،

وبخيالاته الإنسانية ، وهذا الكاتب الشهيرُ هو أبو الحماسيّات الرِّوائية والوجدانيّات الحاليـة ، فـكان لفلسفته ، أو لرواياته ، تأثيرٌ عظيم فى عالَم السياسة ، فهذه الرِّوايات إذا لم تُغيِّر طِرازَ شعورِ كثيرٍ من الناس ، كما قيل ، فإنها أعربت عن مشاعر عصره بتحريكها .

ولا أحدَ كروسُّو أعَدَّ الحالةَ النفسية التى نشأت عنها الثورة الفرنسية ، وهذه الثورة لم تجْرِ ضارِيَةً إلا بعد وُلُوجها دائرةَ الحماسة العاطفية .

ولم يَسْطِع رجالُ السياسة ، الذين احتفلوا حديثاً بذكرى هذا الفيلسوف ، أن يُثبِتوا إمكانَ معرفة بعض الشىء فى كتبه التى يُخْفِى أسلوبُها الرائع كُدْساً هائلاً من الأوهام والمبتذلات والأغاليط ، وتكفى آثارُه أن تُسَوِّغ ما يُبديه العقليون ، فى بعض الأحيان ، من الحذَر ضدَّ الوِجدان العاطفىّ .

ولولا جهلُ الأحوال التى ظهر بينها رُوسُّو إياه شعبيًّا لخامرنى شكٌّ فى ذهاب أحدٍ إلى عَدِّه من الفلاسفة ، ولـكن الرجل أو المذهب إذا ما لاءم احتياجاتِ الزمن العاطفيةَ وَجَدَ من فَوْره أناساً من ذوى البراعة من يَنْسِجون له فلسفة .

ومن ذلك ، مثـلاً ، أن مسيو بُوتْرُو ذهب إلى أنه يمكن « أن يستخلص من آثار رُوسُّو ، بلا تـكلُّفٍ ، فلسفةً حقيقية ذاتَ رَصَانةٍ ومطابقة حقيقيتين إلى الغاية » .

وعلى أىِّ شىء تقوم هذه « الفلسفة الحقيقية » ؟ فاسمع قولَ ذلك العلاَّمة وذلك الأكاديمىِّ الذى اكتشفها : « إن هذه الفلسفة ليست مِنهاجَ توازنٍ ، بل هى تاريخٌ نظرىٌّ أو سِرِّىٌّ للإنسانية ، ففى هذا التاريخ يُمَيِّز رُوسُّو بين ثلاثة أوجهٍ أساسية يمكن أن تُعيَّن رَمْزيًّا بالـكلمات : الطُّهْر والخطيئة والخلاص » .

obeikandl.com

فهذا المذهب إذ كان مذهبَ النصارى منذ ألفى سنة كان من الصعب أن يُوصَف بالفلسفة الحديثة ، على أننا نَعْلَم درجةَ تكذيب اكتشافاتِ علم وَصْفِ الإنسان الحديث لآثار رُوسُّو العاطفية حَوْلَ حال الطبيعة .

وكيف نوافق ، مع ذلك ، على قول مسيو بُوتْرُو : « إن التأثير العجيب الذى اتفق لآثار رُوسُّو يُثْبِت بما فيه الكفاية قيمةَ مذاهبه » ؟ فإذا كان النجاحُ مقياسَ قيمة المذهب كان النجاح الواسع الذى تَمَّ للقرآن دليلاً على قيمة ما يحتويه ، على أننى أشكُّ كثيراً فى ارتضاء كثير من العلماء لتاريخ رُوسُّو فى الإنسانية وَفْقَ تلخيص مسيو بُوتْرُو الآتى :

« يُرَدُّ ذلك التاريخ إلى ثلاثة أدوار : ١ ـ حال الطبيعة أو نظام الغريزة ، ٢ ـ الحال الاجتماعية أو حال الفساد التى يُعَبَّر عنها باستعباد العاطفة للعقل ، ٣ ـ الحال السياسية والخلقية أو التجديد ، أى إعادة النظام الطبيعىّ إلى الأحوال الثابتة الناجمة التى تَعْقُب السقوط ، والسقوطُ هو فى اتِّبَاع العقل للعاطفة التى لا تَعُود غريزةً ، بل تصبح ما يُسَمَّى بالقلب » .

وبَعْدَ رُوسُّو داوم كُتَّابُ قليلون على امتداح أفضلية الوِجدان على العقل ، ومن ذلك أن شُوپنْهاوِر ، المدافعَ الأكبر عن الوِجدان ، يَحْكُم بأن الحقائق العاطفية أدنى إلى الحقيقة من الحقائق العقلية .

واصطراعُ العقل والعاطفة إذ كان أزليًّا وجب ألا يَعْتَرِينَا العَجَبُ إذا ما رأينا بين حينٍ وحينٍ مناهضةَ الفلسفة العاطفية للفلسفة العقلية .

ومن أَبْرَز وجوه ذلك الاصطراع هو ما نشاهده فى الوقت الحاضر فنَدْرُس أمرَه الآن .

٣ — بعثُ الفلسفة الوِجدانيــة

إن الوجدانية الحديثة هى رَدٌّ فعل واضحٌ ضدَّ العقلية ، أو ضدَّ عَجْز العقلية ، والحقُّ أن الفلسفة القديمة لم تستطع أن تُجَاوِز بعضَ الحدود أو أن تُوضِحَ واحدةً من مُعْضِلات مصايرنا .

ولم يأتِ مذهبُ دِيكارْت العقليُّ ومذهبُ كَنْتَ الارتيابيُّ ومذهبُ كُونْتَ الوضعيُّ الضَّيِّق وسُخْرِيَةُ رينانَ الخالدةُ أيَّ نُور على بعض حوادث الحياة والعاطفة فجاز لنا أن نفكر مع پَسْكال القائل : « إن آخر ما انتهى إليه العقل هو وجود أشياء مجاوزةٍ له ، وجودُ أشياءَ لانهاية لها » .

وعلى أيِّ العناصر تُقام الفلسفة إذَنْ ؟ وكيف يُجَاب عن الأمانى الخالدة التى يَظَلُّ العِلْم صامتاً أمامها .

هنالك اكتشافاتٌ كثيرة حديثة تجعلنا نَأْمُل ألاَّ تكون دائرة الوِجدان ، التى ارْتِيدَتْ كثيراً فيما مضى ، قد أَلْقَت جميعَ أسرارها ، وكان علم الحياة وعلم الأمراض قد نَفَذَا بعضَ النفوذ دائرةَ اللاشعور ومن ثَمَّ الحياة الوِجدانية ، وفى هذه الدائرة تُبْصَر فى كلِّ يوم ، وأكثرَ من قَبْل ، منابعُ عميقـةٌ لمشاعرنا وحياتنا اللاشاعرة ، فليس لِلاَّشعور العاطفيِّ وضوحُ الشعور العقليِّ بالحقيقة ، وهو يهيمن عليه فى الحقيقة لِمـا نراه من نبَات أَمَالِى العقل على أساس اللاَّشعور فى الغالب .

ويَبْدُو اللاَّشعور ، أو الوَعْىُ الباطنىُّ كما يُسَمَّى اليوم ، ضَرْباً من النشاط النفسىِّ الذى تَصْدُر عنه ضُرُوبُ النشاط الأخرى ، واللاَّشعورُ هو مَنْبَعُ الحياة

العضوية أيضاً كما أنه منبعُ النشاط النفسيِّ فيُستَنَد إليه في كثير من المسائل الفلسفية، ومن اللاّشعور تُشتَقُّ عناصر الأخلاق التي تتألف الشخصية منها، ويُعَدُّ اللاشعور مَخزَناً جامعاً لفكر جميع أجدادنا فتستمدُّ روحُنا اللاّشاعرة منه على الدوام، وباللاّشعور يتَميَّز الناس على الخصوص، ولا يختلف المتمدن عن الهمجيِّ إلاّ بسُموِّ روحه اللاّشاعرة، ويمكن تعريف اللاّشعور بروح الأجداد المتكاثفة.

وتقوم دراسة اللاّشعور، التي لم تكَدْ تُبْدَأ، على مناهجَ مختلفةٍ.

فألقى علم الأمراض العصبية بصيصاً ضئيلاً على دائرة اللاّشعور التي ظَلَت مجهولةً جهلاً عميقاً لطويلِ زمنٍ، وذلك ببحثه في انفتاق الشخصية وتحليله العناصرَ النفسية.

ولا تزال الفلسفاتُ المُشْتَقّة من دِراسة اللاشعور ناقصةً، ومن الصعب أن نبصر من الآن ماذا يمكن أن يَخْرُج منها.

ومسيو بِرغْسُنُ هو أفضل ممثلي الفلسفة الوجدانية الحديثة، ومن أقواله: «تصبح المعرفة أقلَّ ضبطاً بالانتقال من الجُثْمانيِّ إلى الحَيَويِّ فإلى النفسيِّ، فهنالك يتدخل الوجدان»

وعند برغْسُن أن الطبيعة منحتنا العقلَ من أجل الحياة، لا من أجل تفسير الأمور، فنحن نجاوز غايتَه، إذنْ، بمحاولتنا تفسيرَ الأمور، وعند برغْسُن أن العالم المادىَّ الذى يقول به العلم ساكنٌ غيرُ دائمٍ على حين يدوم عالم الحياة وعالم النفس في مجرًى أبدىٍّ على حسب تَصَوُّر هِرَقْليت.

«فالإدراكُ يَعْنِي السكون»، ويرى مسيو بِرغْسُن أن الأمور تَمُرُّ كما

obeikandi.com

لو كان أصل النور الذي يُوصَف بالعقل مُحاطاً بضَرْب من السَّدِيم الذى تَنْضَج فيه قُوَى مجهولة .

ومبدأُ حركة الأشياء ذلك مما قال به فلاسفةٌ قدماء ، مما قال به تلاميذُ دِيمُوقْرِيط وبروتاغوراس ، فهؤلاء كانوا يَرَوْن أن الأشياء الساكنة أمرٌ مصنوع وأنها ، فى الحقيقة ، هُنَيْهَةٌ من حياة دائمة .

وأصاب مسيو بِرغْسُن فى تفريقه العميق بين الغريزة والعقل ، وما فَتِئْتُ فى كتبى الكثيرة أَعُدُّ الغريزةَ الغامضة الأمر ، مع الحياة التى هى وجهٌ من وجوهها ، حَجَرَ زاويةٍ كبيراً فى الفلسفة والعلم ، وتُقيم الغريزة فى طريق المعرفة سُوراً منيعاً لم يَقْدِرْ أىُّ بحث على هدمه .

ولستُ من الذين يَلُومُون المذهبَ الوِجدانىَّ الحديث على عدم دِقَّتِه ، وما يُفيد فى الفلسفة ألاَّ تُوقَف الدَّارَاتُ كثيراً حتى يَحُومَ حولها من التفاسير ما يُجَادَل فيه ، فالفلسفةُ الواضحة لا تُعَمِّر أن تَغْدُوَ مَيِّتَة ، والآلهةُ الثابتةُ لا تَلْبَث أن تصبح غيرَ آلهة .

واستعملتُ كلمةَ الوِجدان غيرَ مرة حتى الآن من غير أن أحاول تعريفَها ، فإليك كيف يُفَسِّرها مسيو بِرغْسُن .

« يُدْعَى بالوِجدان ذلك الضَّرْبُ من المَيْل الذهنىِّ الذى يُنتقَل به إلى صميم الشىء ليلائم ما هو وحيد ، ومن ثَمَّ ما يَتَعَذَّر الإعراب عنه » .

ولكن كيف يُنْتقَل إلى صميم الأشياء على ذلك الوجه ؟ فإليك ما رآه بِرغْسُن :

لم يَكْتَفِ بِرغْسُن بالبحث عما بين الأشياء من صِلات ، فأراد هذا الفيلسوفُ

المفضال أن يتعمق فى الحقائق فينفذ فى المطلق ، والعقل إذ كان عاجزاً عن ذلك زعم برغسن وصوله إلى ذلك بالوجدان الذى هو ينبوع جديد للمعرفة ، و بالعقل ، مع ذلك ، ذهب هذا العدوّ للمذهب العقليّ إلى إقامة مبادئه .

وهل لنا أن نرجو كشف حقائق جديدة بالوجدان ، والوجدان لم يكتشف واحدة منها حتى الآن ؟ لقد أبديتُ هذا الاعتراض لمسيو برغسن مشافهةً فأصاب فى إجابته عن اعتراضى هذا بقوله إنه كان يمكن أن يُوجَّه مثلُ ذلك اللوم على المنهاج التجريبيّ قبل ظهور غاليله بأن هذا المنهاج لم يسفر عن شىء بعدُ .

ظلّتْ نظرية الوجدان ضمن دائرة الفرضيات التى قد تغدو خصيبةً ذات يوم، ولكنها ليست كذلك حتى الآن ، فلنداوم ، إذن ، على ارتياد عالم الوجدان اللاشعوريّ غيرَ غافلين ، مع ذلك ، عن أن البشرية لم تتقدم إلا بعد أن تفلّتت منه ، فالعقلُ ، لا الوجدانُ ، هو الذى تمكّن من السيطرة على الطبيعة .

و إذا كانت الغريزةُ والعاطفة وكلُّ ما يُنسب إلى منطقة الوجدان مُحرِّكاتٍ قويةً للإرادة فإنها أدلاءُ خطِرةٌ إذا لم يهيمن العقل عليها ، فلنخشَ ، على الدوام ، هذه القُوى اللاعقليّة التى يُحاولُ تأليهُها فى أيامنا الحاضرة .

ومهما تكن الاعتراضات التى يمكن تصويبها إلى نظريات مسيو برغسن فإننا نرى أنه بذل جُهدًا عنيفاً ليُخرِج الفلسفة من الدائرة التى تدور ضمنها منذ زمنٍ طويل على غير جدْوَى ، فهو قد وجّه الفكرَ الحديث إلى مسائلَ لم يفتأ المذهبُ العقليُّ الجامعىُّ يزيدها غموضاً، مع أنها موضوعُ اهتمام البشرية منذ نشأتها، فلا مناص لها من اتباعها حتى آخر أيامها .

ظَهَرَ مسيو برغْسُن فى الوقت المُعَيَّن الذى تَعِبَت الفلسفة فيه من مناطحة السُّور عَيْنِه على الدوام فَعَدَلَتْ عن إيجاد مناهجَ عقيمةٍ ، وهـذا المفكر العَلاَّمَة أَحْيَا فى قلب الناس المُتَعَطِّشين إلى الإيمان آمالاً كان يلوح ضَياعُها نهائيًّا ، فهو قد جعلهم يَرْجُون خلودَ الرُّوح ، وهو قد قال للناس إن هـذا العالَم ليس تَشَبُّكَ قُوى عُمْيٍ ، وإن العقل ليس دستورَ المعرفة ، وهو قد قال للنـاس ، أيضاً ، إن الإنسان يَحُوزُ ، مع قليلٍ من الاختيار ، وسائلَ الوُلُوج فيما لا يمكن معرفته ، وإن على الإنسان ألاّ يعتقد أنه فريسةٌ مُقَدَّرَةٌ لقُوًى حَتْمِيَّةٍ دافعاً إياه إلى ظُلُماتٍ لا حدَّ لها ، وبرغْسُن ، حين يُؤَكِّد هذه الأمور ، اقتصر ، على ما يحتمل ، على إحياءِ أوهامٍ قديمة ، ولـكنه أيقظ هذه الأوهامَ على وجه تكون به مسموعةً ، وفى وقت تستطيع فيه أن تُعِدَّ عناصرَ ما يحتاج إليه أناس كثيرون من دين جديد .

٣ — نوعا الوِجدان : الوجدانُ العاطفىُّ والوِجْدانُ العقلىُّ

يحاول الفلاسفةُ الوِجدانيُّون أن يَفْصِلوا الوجدان عن العقل وأن يجعلوه مشتقًّا من العاطفة الصِّرْفَة فيُحْدِثوا بذلك خلطًا يجب تبديده .

ويعارض أولئك الفلاسفةُ الوِجدانَ بالعقل فيُعَبِّر اسم الفلسفة اللاّعقلية عن هذا الاتجاه ، ولا أَجِدُ ما يُسَوِّغ هذا التفريق ، أَجَلْ ، إن دائرة العقل منفصلة عن دائرة العاطفة ، ولـكن الوِجدان يسيطر على الأولى سيطرته على الثانية .

وعندى أن للوِجدان نوعين مختلفين أشـدَّ الاختلاف ، وهما : الوِجدانُ العقلىُّ والوجدانُ العاطفىُّ

فالوِجدان العقليُّ يُعيِّن نشوءَ تلك الأفكار الغريزية والجِبِلِّية أحياناً ، والتى هى أُمَّهات الاكتشافات العظيمة التى تُنير فكر العالَم فى بعض الساعات ، فما كان غَليلِه ونيُوتُن وهنرى بُوانكارِه ومن إليهم إلا وِجدانيين عقليين ، وبُوانكارِه هذا أعلن ذلك بنفسه .

وتختلف الوِجداناتُ العقلية عن الوِجدانات الشعورية فى أن الأولى خاصّةٌ بعالَم الأفكار وأن الثانيةَ خاصّةٌ بعالَم المشاعر ، ويَتَجلّى الوِجدان العاطفيُّ أو الدينيُّ فى الاندفاعات غير الشاعرة التى تقود أكثر الناس والتى يناهضها العقل بكبيرِ جُهدٍ حتى عند ذوى النفوس العالية ، ولا يَخْرُج الأولاد والنساء والفِطْرِيُّون والهَمَج والجموع ، أبداً ، عن دائرة الوِجدانات اللّاشاعرة التى هى من أصلٍ عاطفىّ أو دينىْ .

والوِجداناتُ العقلية إذ إنها خاصَّةٌ بعدد قليل من الناس، والوِجدانات العاطفية أو الدينية إذ تُشاهَد لدى الجميع سَهُلَ علينا أن نُدْرِك السبب فى أن الفلسفاتِ العاطفيةَ شعبيةٌ على الدوام ، فكلٌّ يرى فيها تسويغَ اندفاعاتٍ يعمل العقلُ القديم والأخلاقُ التالدة على زَجرها .

ويكون الرجلُ الوِجدانىُّ العاطفىُّ ، فى الغالب ، من أولئك المَرَدَة الذين تختلف أسماؤهم بحسب الأزمنة، فكان الرجلُ الروائىُّ القديم يستلهم الفلسفةَ الغريزية التى يستلهمها الثَّوْرِيُّون والعَدَمِيُّون فى الوقت الحاضر .

وقد يكون الواجدانُ العاطفىُّ مفيداً إذا لم يُجاوِز بعضَ الحدود ، ولكن مجتمعاً لادليل له غير الوِجدان العاطفىِّ لم يُعَتِّم أن يعُود إلى طوْر الهمجية الأولى .

ونحن إذا ما نظرنا إلى نتائج تقدم الوجدان العاطفيِّ والوجدان العقليِّ اعترفنا، من فَوْرِنا ، بأن سَيْر الحضارة المتصاعدَ مَدِينٌ لنُمُوِّ الوجدان العقليِّ وتناقصِ الوجدان العاطفيِّ ، وما شأنُ التربيـة إلا فى تَنْمِية الوجدان العقليِّ ، وما شأنُ القوانين المدنية والدينية إلا فى زَجْر الوجدانات العاطفية التى هى من بقايا الحيوانية الأولى ، والمثلُ الأعلى هو فى حفظ توازن ذَيْنك الوجدَانَيْن ، قال بَسْكال : « للعقل نظامُه القائم على القياس والبرهنة ، وللقلب نظامٌ آخر » .

ولا نَزْعُم ببياننا الموجز السابق أننا نُجَدِّد تاريخ الفلسفة ، ولكننا أوضحنا فيه ، فقط ، تطورَ الأفكار التى تَرَكتها فى الذهن البشريِّ ، كما عَرَضْنا فيه ، باختصار ، كيف بدَا مبدأُ الحقيقة للفلاسفة .

obeikandl.com

الفصل الثالث

تطور الفلسفة النفعى

مذهب الذرائع (البراغماتية)

١ . فلسفة الذرائع — ٢ . شأن الغريزة فى فلسفة الذرائع

١ — فلسفة الذرائع

تهدف الفلسفة النفعية ، التى أطلق عليها اسم مذهب الذرائع[1] ، إلى البحث عن فائدة الأشياء ، لا حقيقتها ، فافترض النافع أنه حقيقى ، فغدت كلمة الحقيقة مرادفة لكلمة الفائدة .

وسوفسطائيو اليونان ، ولا سيما پروتاغوراس الذى ذكرناه فى فصل سابق ، كانوا قد تكلموا عن مذهب الذرائع منذ زمن طويل .

فعند تلميذ هرقليت هذا تعبر الحقيقة عما لدينا من فكر عن الأشياء ، فلا حقيقة خارجة عنا ، وما ندعوه حقيقة هو حقيقتنا ، وليس هنالك حقيقة مطلقة ،

---

(١) يظهر أن كلمة « مذهب الذرائع » قديمة جداً ، فقد استعملها كنت ، قال مسيو غوبلو : « يسمى كنت بمعتقد الذرائع المعتقد الذى لا نقدر على تسويغه بالتأمل ، والذى يرضى به ، ولو موقتاً ، كمبدأ للحركة وذلك وصولا إلى غاية معينة ، فقيمة مثل هذا المبدأ تكون بحسب مايكتب للمشروع من نجاح أو حبوط » .

بل آراء شخصية يَعُدُّها من يعتقدها حقائقَ ، والحقيقةُ متحركةٌ غيرُ ثابتة ، ونحن لا نُقدِّرها إلا بإحساساتٍ متقلبة بحسب كلِّ فرد .

ولا مقياسَ للحقيقة عند بِرُوتاغوراس ، فالحقيقةُ عنده لا تُثبَت ، بل تُمثَّل ، ولا يَخلِط هذا الفيلسوفُ الحقيقةَ بالفائدة مع ذلك ، بل يُميِّز بينهما ، ولكنه يذهب إلى إمكان اختيار أفيد الآراء ، فيرى وجوبَ قيام العدل على الفائدة ، لا على الحقيقة .

ولا يبتعد أصحاب مذهب الذرائع المعاصرون عن جدِّهم بِرُوتاغوراس أبداً ، فلا حقيقة ولا خطأ عندهم ، بل ينظرون إلى النتائج السامية ، قال حَبْر هذا المذهب الرئيسُ ويلْيَمْ جيمْس :

« حقيقةُ الفكر بنتائجه ... ولا احتياجَ إلى تَقبُّل حقائقَ مُعيَّنة إلا عند ما يصبح من المفيد صنعُ ذلك ... والفكر لا يكون حقيقيًّا ما دمنا غيرَ ذوى منفعة حَيَوِيَّة فى اعتقادنا أنه كذلك » .

وكان نِيتْشِه قد صاغ مثلَ تلك القضايا مع اختلاف فى التعبير ، قال نِيتْشِه :

« بُطْلان الرأى لا يعنى اعتراضَنا على هذا الرأى ... فالمهمُّ هو فى معرفة المَدَى الذى يُعجِّل هذا الرأىُ به الحياةَ ويحفظُها ، ومعرفةِ المَدَى الذى يُمْسِك به النوعَ ويُنمِّيه فترانا نَميل ، كمبدأ ، إلى القول بأن أخطل الآراء أكثرُها لزوماً وبأنه لا بقاء للإنسان بغير مَجْرَى القِيَم المنطقية القسرىِّ ، بغير تزييف العالَم بالعَدَد ، وبأن العدول عن الآراء الزائفة يَعْنِى عدولاً عن الحياة ، إنكاراً للحياة ، فالاعترافُ بأن الكَذِب شرطٌ حَيَوِىٌّ هو مقاومةٌ خَطِرَة للمقاييس المألوفة فيكفى الفيلسوفَ أن يَجْرُؤَ على ذلك ليُوضَع خارج الخير والشرِّ » .

ويبدو حلُّ المسائل الدينية والخلقية أمراً سهلاً لدى أصحاب مذهب الذرائع ، فالأديانُ تكون صحيحة إذا ما جعلت الإنسان سعيداً ، ويجب عدُّ الوَهْم المفيد حقيقةً ، والإيمانُ أمرٌ ضروريٌّ ، فلم يُسْفِر شكٌّ تَهَاْيت عن غير العطَل من العمل .

وترى الذرائعيّين ينظرون إلى المعتقدات كما لو كان اختيارُها خاصًّا بإرادة الإنسان ، وعكسُ هذا ما يذهب إليه علم النفس .

فالذرائعيُّ ، إذَنْ ، يكون ، بحسب مبادئه ، مؤمناً أو ملحداً ، ماديًّا أو روحيًّا ، فاضلاً أو فاسقاً وَفْقَ منفعته الشخصية ، ومن البديهيِّ ألاَّ يُوصَى بمثل هذا المبدأ إلاَّ قليلاً .

وإذا نُظِر إلى الذرائعية من الناحية الاجتماعية ، بدلاً من النظر إليها من الناحية الشخصية، أمكننا أن نقول إنها أقدمُ فلسفةٍ في البشرية ، فكان بضعُ عشراتٍ من الناس إذا ما اجتمعوا لتأليف قبيلةٍ اضْطُرُّوا إلى اتخاذ المنفعة دستوراً لجميعهم منتحلين الفلسفةَ الذرائعية من حيث النتيجةُ . . ويمكن عَدُّ جميعِ كُتُبِ الحقوق القائمة على العادات والتي يُشْتَقُّ منها جميعُ القوانين رسائلَ حقيقيةً لمذهب الذرائع .

ولكنَّ مذهب الذرائع إذا كان أساساً ضروريًّا للأخلاق الاجتماعية لم يكن من غير الخطَرَ أن يكون أساساً للأخلاق الشخصية ، فالفائدةُ ، في الحقيقة ، تختلط بالمنفعة الشخصية بسهولة ، ولذلك كان من الصواب قولُ مسيو بُوتْرُو إن مذهب الذرائع هو « فلسفةُ التجار والماليين ورجال المصافق[١] » ، ولن يكون جيشٌ مؤلف من الذرائعيين خَطَراً على أعدائه .

---

(١) المصفق : البورصة .

٣ — شأن الغريزة في فلسفة الذرائع

قضت الضرورة بأن نبسط نظريات مذهب الذرائع إظهاراً لمسائل هذا المذهب الأساسية ونتائجه .

فمذهبُ الذرائع ينطوي ، بالحقيقة ، على آراء مختلفة يطولُ عرضُها ، ويرى كثيرٌ من أصحاب هذا المذهب أنه منهاجٌ لنَيْلِ المعرفة فضلاً عن أنه اختبارٌ نفعيٌّ ، ويختلف هؤلاء الأصحاب من هذه الناحية كثيراً ، والحقيقةُ هي ، كما يفترض هؤلاء على العموم ، وليدةُ أجزاء للحقيقة تَمَّ اختيارها وَفْقَ فائدتهم ، وذلك بدلاً من عَدِّ الحقيقة مستقلةً عنا .

ويمكن الدفاع عن ذلك المبدأ كما هو واضح ، فنحن لا نفعل سوى تجزئتنا ، في الحقيقة ، مفاهيمَ ملائمةً لحواسِّنا وللأجهزة المُتِمَّة لها .

ولكن العزائمَ ، التي هي وليدةُ احتياجاتنا ، إذا كانت تُوَجِّه تَجارِبَنا ، لا ترى أيَّ تأثيرٍ لها في الحقائق الصادرةِ عن هذه التَّجارِب والمناقضةِ لرَغَباتنا في بعض الأحيان ، والحقائقُ التي تُقَرَّر على هذا الوجه ، وإن كان من الممكن ألَّا تلائم احتياجاتِنا ، وَجَب مداناتُها ، ويشابه العالِم بعضَ الشَّبَه سَحَرَةَ الأساطير القديمة العارفين باستحضار الأشباح من غير أن يَقْدِروا على إخضاعها عند ما تتكوَّن .

ومذهبُ الذرائع ، ويزدري المبادىء العقلية التي لا فائدةَ عمليةَ لها ، هو كثيرُ المراعاة للغريزة والوِجدان المترادفَيْن بعض الترادف ، شأنُ جميع الفلسفات الوِجدانية ، قال أحد فضلاء المدافعين عن هذه المذاهب :

« إن الغريزة أمرٌ لاريب فيه ، إنها من المُعطيات المُحكمة المُثبتة ، والغريزة ، مهما كانت مصادرها ، هى عِنوان ميْلِ النوع ونفسه ، فاتِّباعُها هو الواجبُ الأول لمن يريد أن يسير مع الطبيعة كما يأمر العقل » .

والذى يبدو لى هو أن العقل يأمر بعكس ذلك ، فمن مُقتضيات تقدُّم الحضارة أن يتغلب الإنسان على اندفاعاتِ الغريزة ، أى أن يسيطر على « تَدَهُّياته » كما قال أحد علماء وظائف الأعضاء ، ولا يميل الرجل العصرىُّ إلى أن تهيمن عليه غرائزُ همجيةِ الأجداد التى ردَعتْها الزواجر الاجتماعية القَصِفة بصعوبة .

ومن الوجوه الضارّة فى مذهب الذرائع نذكر ، أيضاً ، نفورَه البيِّن من جميع الأبحاث النظرية ، قال وِليَم جِيمْس :

« يتحوّل مذهبُ الذرائع عن التجريد ... إلى الفكر المُعيَّن الكامل ، إلى الوقائع ، إلى العمل الناجع » .

أجَلْ ، إن العناية بالمُعيَّنات وبالعمل الناجع أمرٌ حكيم ، ولكن هذا السلوك إذا ما عَمَّ عدَلَت البشريةُ عن كلِّ تقدم ، فالتأملاتُ الخالية عن النفع العمليِّ هى التى أسفرت عن أعظم الاكتشافات .

وقبلَ أصحابِ مذهب الذرائع المعاصرين بزمنٍ كان أوغُوسْت كُونْت قد صاغَ نصائحَ مشابهةً لتلك فيما يجب أن تُحْبَى به الدِّراساتُ العلمية من التوجيه العمليِّ ، فودَّ أن يقوم مجمعٌ للعلماء فيَمْنَعَ المباحثَ غيرَ النافعة كدراسة تركيب الكواكب الكيماوىِّ لاستحالته ، فلو قام هذا المجمع بذلك ما اكتُشِفَ تحليلُ طَيْفِ الشمس الذى اطُّلِعَ به على تركيب الشمس وجميعِ النجوم الكيماوىِّ ،

فباتّباع الأوهام يُوصَل ، فى الغالب ، إلى اكتشافات مفيدة إلى الغاية ، ولولا أبحاث السِّيمياويِّين حَوْلَ الإكسير ما ظَهَرَ علم الكيمياء الحديث ، ولولا تأملاتُ مَكْسوِيل الجريئةُ لظلّ البرْق اللاّسِلْكىُّ أمراً مجهولاً .

وإذا ما انتشرت فلسفةٌ جديدة وُجِدَ من يحاول تطبيقَها على المسائل التى تستهوى النفوس ، وبَلَغ مذهب الذرائع من عدم تفَلّته من هذه السُّنَّة ما أدّى معه مبدأه النفعىُّ ، الذى عُدّ مُرادفاً للحقيقة ، إلى أسوأ المذاهب ، فما رأيناه استخدامُه من قِبَل النقّابيَّة الثورية التى يتعذر أن يُدَافَع عنها دفاعاً معقولاً .

ومع ذلك ، وفى كلِّ زمن ، يَبْدُو مُحْترِفو السياسة الذين تَعوَّدوا خَلْطَ الحقيقة بالمنفعة ، أتْباعاً أوْفِياءَ لمذهب الذرائع ، ومن أولئك نذكر رُوبسْپير الذى انتحل فى إحدى خُطَبِه صِيَغاً عزيزة كثيراً على أصحاب مذهب الذرائع المعاصرين ، فبعد أن أبدى استخفافاً بالفرضيات الفلسفية قال : « إن الحقيقة عند المشترع هى كلُّ شىء نافع للعالَم صالح فى العمل [١] »

وَيظلُّ الحكْم الذى أبديناه فى الصَّفَحات السابقة عن مذهب الذرائع مستقلاً عن الأمم التى نَبَتَ فيها هذا المذهب وعن المكان الذى ظهر فيه ، ويمكننا

---

(١) من التقرير الذى كتبه مكسيمليان روبسپير باسم لجنة السلامة العامة فتلى فى مجلس العهد فى اليوم الثامن عشر من شهر فلوريال (الشهر الثامن من السنة الجمهورية) من السنة الثانية ، فطبع بأمر هذا المجلس .

أن نُسَوِّغ بعضَ أجزاء هذا المذهب عند نظرنا إلى أنه نَمَا ، على الخصوص ، لدى الأمريكيين النفعيين الذين ليس عندهم من الوقت ما يستنفدونه فى المناقشات والذين لا يريدون أن يُمْسِكوا من المبادئ بغير نواحيها التى يُسْتَفاد منها فى الحياة اليومية .

ومذهبُ الذرائع إذا ما نُظِر إليه من تلك الناحية وُجِدَ أنه ملائم لاحتياجات الولايات المتحدة ، ومن مزاياه أنه يساعد على تقوية السِّلْم الدينية فيها ، فهو إذا ما أُبْصِرَ من هذه الجهة على الخصوص كان من الحقّ أن يُشَاطَر الحكمُ الآتى الذى أبداه المؤرخ فِيرِيرُو :

« إن مذهب الذرائع الأمريكىّ هو مذهبُ توفيقٍ على الخصوص ، فهو يَهْدِفُ إلى منح الناس وسيلةَ التوفيق بين الأفكار والمذاهب المتعادية بإثباته أن جميع الأفكار ، حتى المتهادمَ منها ، يمكنه أن يساعدنا على أن نكون أقومَ وأحكمَ وأحسنَ مما نحن عليه ، وما الفائدة فى الاصطراع انتصاراً لمذهبٍ أو فكر على مذهبٍ أو فكرٍ آخرَ بدلاً من تركِ الناس يستخرجون منه ، أحراراً ، كلَّ خيرٍ يمكن أن يؤدىَ إليه ؟ ومن يَعْرِفْ أمريكة الشمالية يَقُلْ إنه إذا ما وُجِد مذهب أمريكىّ بالحقيقة كان ذلك المذهبَ » .

نَخْتِم بهذا الفصل دِراسةَ المبادئ الدينية والفلسفية التى عَدَّتها النفسُ البشرية حقائقَ ، ونحن ، بعد أن رأينا الأديانَ تُعَبِّرُ ، بالآلهة ، عن احتياجاتِنا وأحلامنا وآمالنا وَجَدْنا أن الفلسفاتِ تقوم على الإنكارات من غير أن تُقِيم ما هو دائم ،

وبعضُ الفلسفاتِ يَزْعُم الآن أنه يؤلِّهُ الوجدانَ وبعضُها الآخر يزْعُم الآن أنه يؤلِّه المنفعةَ ، بَيْدَ أن هذه الأصنامَ الجديدة ليست من القوة والنفوذ بحيث تَفْرِض حكمَها زمناً طويلاً .

وبجانب الأديان القديمة والفلسفات الحديثة التي تقْترح تحويلَ أوهامنا الناشئةِ عن رَغَباتنا إلى حقائقَ أقام العلمُ ببطوء حقائقَ مستقلةً عن هذه الرغبات ، فسنبحث في تكوينِها عمَّا قليل .

الفصل الرابع
الآراء الحديثة فى قيمة الفلسفة

١ . الأسس النفسية للفلسفة ، آراء العلماء فى الفلسفة — ٢ . القيمة الحقيقية للفلسفة ، الروح الفلسفية .

١ — الأُسُسُ النفسية للفلسفة

آراء العلماء فى الفلسفة

للحقائق الدينية التى بحثنا فيها مصادرُ عاطفيةٌ ودينية وجَمْعِيَّة ، ولكن مالها من المصادر العقلية قليلٌ إلى الغاية ، وللمبادئ الفلسفية التى فَرَغْنا من البحث فيها مصادرُ عقليةٌ ودينية ، فليس للعناصر الجَمْعِيَّة والعاطفية سوى تأثير ضعيف جدًّا فى تكوينها .

وليس من السهل تعريفُ الفلسفة الحاضرة ، وذلك لتَحَوُّل معناها على الخصوص ، وفيما مضى كان يَلُوح للفلسفة تفسيرُ الحوادث وتعيينُ عِلَلِها الأولى ، وفيما مضى كانت الفلسفة تختلط بعلم اللاهوت فافترقت عن هذا العلم بالتدريج ثم أخذت تناهضه .

ومعظمُ الفلسفات الحديثة يَزْعُم قيامَه على العلم فى كلِّ وقت ، ولكنه يختلف

عنه فى أمر أساسىّ ، فالفلسفة إذ كانت وليدةَ الخيال الذى يُفسِّرُه العقل فإنها عِنْوَان أقصى ما يَصِل إليه العقل غيرَ مستعينٍ بالمناهج التَّجْرِبيَّة ، والعلمُ ، وإن كان يشتمل على فَرْضِياتٍ ناشئة عن الخيال ، يَضَع هذه الفَرضياتِ تحت رَقَابَة التَّجْرِبة والترصد .

وهذا الفرق هو من أهمِّ الأسباب التى تجعل الفلاسفة دون العلماء ، فالفلاسفةُ ليس لديهم من وسائلِ تَرَصُّدِ العالَم غيرُ ما تشهد به حواسُّهم على حين يُوَسِّع العلماء حدودَ هذه الحواسِّ بطائفة من الأجهزة ، وما اتَّفَقَ لمبادئ الكَوْن من التحول بفضل استعمال تلك الأجهزة لم تَسْطِعْ أيةُ فلسفة أن تستدلَّ عليه ، فما دار حَوْل عَدِّ كُرَتِنا الأرضيةِ مركزاً للعالَم من الأفكار فقد قُلِبَ رأساً على عَقِب بفعل اكتشاف آلاتٍ دَلَّت على أن أرضَنا ليست غيرَ كوكبٍ سَيَّار صغير سابح فى الفضاء بين ملايين النجوم ، وكذلك هُدِم ما دار من النظريات حَوْلَ الخِلْقَة عند ما أسفر التَّرَصُّد عن كون الموجودات الحاضرة اشْتُقَّتْ من أنواعٍ سابقة بتحولاتٍ وِراثية بطيئة متراكمة .

ومبادئُ الفلسفة إذ لا يمكن تحقيقها بالتَّجْرِبة كانت العناصرُ الدينية ذاتَ دَخْلٍ فى وضعها ، فغاص أكابر الفلاسفة العقليين ، كديكارْت وكَنْت وأُوغُوسْت كُونْت ، فى الدينيات من حيث النتيجةُ ، وما مبادئُ كتاب « انتقاد العقل العملى » اللاهوتية ، وما تأسيسُ الدِّيانة المعروفة بالوَضْعِيَّة مؤخراً إلاَّ أمثلةٌ بارزة على ذلك .

والفلسفةُ ، لضَعْف وسائل الاستقصاء فيها ، اضْطُرَّت بالتدريج إلى أن تَتْرُك للعلم ما كانت تَزْعُم حَلَّهُ من المسائل ، ثم اقتصر عملها فى نهاية الأمر على ما بعد الطبيعة الصِّرْفَة تقريباً .

فمن أجلِ تلك الأسباب المختلفة رأى كثيرٌ من الألبّاء في الوقت الحاضر أن الفلسفة من المعارف الثانوية بعد أن كانت تُعَدّ على رأس العلوم .

وإليكَ كيف يُلخّصُ رئيس المجمع العلمي المِفضال إميل پيكار رأيَ العلماء المعاصرين في الفلسفة ، قال پيكار :

« من النادر ، كما أرى ، أن تجد بين العلماء المُتبتّلين إلى العلوم الطبيعية من يأبهون إلى الفلسفة بالمعنى الصحيح ... وتبدو المناقشاتُ حولَ الحقيقيّ والصحيح ، العزيزةُ على المذاهب الفلسفية في كلّ زمن ، من اللّغو لدى من يتخذون التجربة والترصدَ رائدَين لهم ... وينظرُ العالِم بعين الحَذَر إلى دقائق النّقد التي لم تُؤدِّ إلى اكتشافاتٍ فعّالة ... ويرى العالِم ، على العموم ، أن الفيلسوف يتكلم بلغة غير لغته فلا يحاول أن يفهمَه . وتُثير الفلسفة ، في الغالب ، مسائلَ بلا جواب » .

وجاء في كتاب أرسله إليّ صديقي العالمُ المشار إليه يُؤيّد فيه رأيَه ذلك كما يأتي :

« أرى من الواجب أن تُحفَظ كلمة الفلسفة للقصائد والأخيلة حولَ ما بعد الطبيعة ، فهنالك نباتاتٌ لا تُغرَس في المُختبَرات » .

وأبدى كثيرٌ من مُحترفي الفلسفة في نهاية الأمر من الآراء ما يشابه ذلك ، فاسمع القولَ الآتيَ لأحد مشاهيرهم وِيلْيم جيمْس :

« يعني وضعُ الرجلِ قدمَه في صِنْف من الفلسفة أن يكون ذا علاقاتٍ بعالَم مختلف عن العالم الذي تركه خلفَه في الشارع ، وبلغ ابتعاد أحد ذَيْنِك العالَمَين عن الآخر مبلغاً صار يتعذر معه أن يُفكّر فيهما في وقت واحد ... وفي العالَم ، حيث جعلكم أستاذُكم تنفُذون ، يبدو كلُّ شيء بسيطاً نظيفاً نبيلاً ، فلا تُبصر

obeikandi.com

متناقضات الحياة ، ويظهر ذلك العالم من طراز قديم يرسم العقل فيه الخطوط الكبرى وتصل مقتضيات المنطق فيه مختلف الأجزاء ... والواقع أن ذلك رسم واضح فوق عالمنا الحقيقى مضاف إليه أكثر من أن يكون وصفاً لهذا العالم ... فلا تجد فيه إيضاحاً لعالمنا المعين ، فيقام مقامه شىء يختلف عنه اختلافاً تاماً ، بدلاً من تفسيره » .

وتقديرات كتلك فى ضعف قيمة الفلسفة مما تجده حتى عند أساتذة الفلسفة ، فما يبديه هؤلاء الأساتذة من عدم اكتراث لها بلغ غايته فى الزمن الحالى ، ومن كان فى ريب من ذلك فليراجع التحقيق الطريف الذى قام به مسيو بينه لدى أساتذة الجامعة الرسميين ليعلم المذاهب الفلسفية التى ينتسبون إليها وماذا يعلمون ، فهنالك يرى أن معظم هؤلاء الأساتذة كف عن الدفاع عن أى مذهب ، وأنهم يقتصرون على تدريس النظريات التى يدعمها رؤساء الجامعة دعماً موقتاً ، ماداموا مكلفين بإلقاء بعض الشىء وما دام أولئك الرؤساء يوجهونهم توجيهاً مختلفاً ، والذى يظهر أن المذهب الوجدانى ومذهب الذرائع النفعى هما أكثر المذاهب حظوة فى الوقت الحاضر .

وما نشاهده من عدم اكتراث العلماء والأساتذة للمناهج الفلسفية فقد عم الجمهور المثقف أيضاً ، وما وضع عن الحقيقة والجمال والخير وصفات الروح الخ ، من تآليف تليدة فيلوح لغواً هزيلاً خليقاً بأن يترك لعلماء اللاهوت .

والفلاسفة الرسميون إذ عطلوا من كل نفوذ داوموا على الجدال بإسهاب فى مسائل مطروقة منذ أكثر من ألفى سنة غير مضيفين إليها عنصراً جديداً ،

وما كان لهم مندوحة عن الإبهام فى التعبير ستراً لخواء الفكر (١) .

واليوم تتحول الفلسفة القديمة إلى خلاصة بسيطة للمبادىء العامة فى كل علم ، وتنقلب الرسائل الفلسفية التى تطرح أمام كليات الجامعة إلى رسائل فى العلم الخالص .

وإذا ما نظرنا إلى الأحكام الآنفة الذكر وحدها ظهر لنا شأن الفلسفة فى الوقت الحاضر ضعيفاً إلى الغاية ، وسنرى ، مع ذلك ، أن نفوذ الفلسفة ، وإن كان دون ما كان عليه فى الماضى بمراحل ، لا يزال عظيماً .

(١) يكون الأسلوب الغامض فى الفلسفة وفى معظم الموضوعات وليد الفكر الغامض فى الغالب ، وقد يكون الغموض ، على استثناء ، نتيجة جدة المذهب ، وهذا ما أصاب مسيو برغسن فى بيانه فى كتاب تفضل بإرساله إلى حول هذا الموضوع فأقتطف منه ما يأتى :

« وأما حول ما أبديتموه فى كتابكم الأخير ، وفى الكتاب الذى قبله ، من الملاحظات عن الوضوح فى موضوع الفلسفة فاسمحوا لى بأن أقول لكم إن المبدأ الفلسفى الذى يفهم أول وهلة هو المبدأ الذى كان يخامر النفوس سابقا ، أو الذى هو مجموع أفكار موجودة قبلا ، فطالبة الفيلسوف بهذا النوع من الوضوح تعنى افتراضاً بأن جميع عناصر الحقيقة الفلسفية كانت موجودة فى نفوسنا وبأن الفلسفة عاجزة عن التقدم ، وعندى أن على الفلسفة أن تتقدم كثيراً ما دام كل تقدم حقيقى وليد أفكار جديدة مثيرة لمعضلات سابقة فتقتضى من القارئ لهذا السبب كبير مجهود وتبدو له ذات طابع إبهام ، ولكن القارئ إذا ما أوغل فى الفكر الجديد بدت له الأفكار القديمة مبهمة ، وذلك لأنها تسير بالقارئ إلى مصاعب يقدر الفكر الجديد ، عند وجوده ، على حلها ، ولا ترى فكراً نظريا مبهما واحداً يبدو اليوم واضحا لم يكن مبهما فى الأصل ، فلا ينبغى أن تقاس قيمة الفكر الفلسفى فى سهولته التى تدرك أول وهلة ، بل فى قدرته على حل المعضلات وفى اتضاحه بالتدريج من تلقاء نفسه .

« وللاعتراضات التى توجه إلى المذهب الفلسفى باسم الوضوح المباشر نفس المصدر الذى وجه إليكم فى موضوع الفيزياء ، وهذا المصدر هو المبدأ أو المعتقد (الملائم لروحنا) القائل بحيازتنا لجوهر الحقيقة وبأن كل تجديد لا يكون سائغا إلا إذا كان وجهاً من وجوه المباحث المعروفة لدينا مقدما » .

obeikandi.com

٢ — القيمة الحقيقية للفلسفة

الروح الفلسفية

لَخَّصْتُ فى المطلب السابق تقديرَ عددٍ كبير من العلماء والفلاسفة المعاصرين للفلسفة ، وهـذا التقدير إذ قام على المنطق العقلى فإنه لا يكون تقديراً إذا ما خَرَج عن تلك الدائرة

وأولُ ما يجب أن يُنْظَر إليه هو أن الفلسفة كانت تلائم ، فيما مضى ، احتياجاً إلى الإيضاح فيما عَجَز العلم عن قضائه ، فظَلَّت الفلسفة لهذا السبب دينَ ذوى النفوس المُثَقَّفة .

والفلاسفةُ وحـدَهم ، حتى الزمنِ الحديث ، ظَلُّوا حَمَلَة بعض الآراء مع عدم قيام العلم بذلك ، وكانت هـذه الآراء قليلةَ الوضوح أحياناً ، فـكان فى غموضها سِرُّ نجاحها فى الغالب ، ومن القول الصائب أن المبـدأ إذا ما غدا واضحاً عاد لا يكون خصيباً .

ومَثَلَ الفلاسفة فى تاريخ الفـكر البشرىِّ شأناً أسْمَى من شـأن المُتَفَنِّنين والأدباء والشعراء فى بعض الأحيان ، فهيمن أرسطو على التعليم فى القرون الوسطى وهيمن دِيكارْتُ على القرن السابعَ عشرَ ، وبلغ كَنْتُ من التأثير ما قيل معه بحقٍّ : « إن نصف الفلسفة الأوربية صَدَرَت عنه فى القرن التاسعَ عشرَ مع الارتباط الوثيق فيه » .

وكان لخلفائه فِيخْتِه وشُوپِنْهاوِر ونِيتْشِه وغيرِهم بالغُ الأثَر أيضاً ، وبعضُ النظريات العلمية وحدَها ، كنظرية التحول التى أسفرت عن إمكان نقض مبدأ خلق العالم وإقصاء مبدأ النهاية ، هى التى كان لها مَدًى أبعدُ من ذلك .

ونحن ، لكى نُقدِّر شأنَ الفلسفة تقديراً صحيحاً ، نرى ألاَّ يُبْحَث عنها فى الزمن الحاضر فقط ، بل فى الماضى القريب أيضاً ، فهنالك نَجِد أن تأثيرَها تَسَرَّب فى جميع الحقول .

فالفلسفةُ قد غَذَّت الدِّيانات ، حتى السياسة ، بمبادىء شِبْهِ عقلية ، ذاتِ قليلِ خيالٍ فى الغالب لا رَيْب ، ولكن مع إفادتها .

وأضحت الفلسفةُ ، فى أيامنا أيضاً ، دارَ صِناعةٍ يَقْتَبِس منها مُحْتَرِفو السياسة الذين غَدَوْا علماء لاهوتِ الأزمنة الحديثة ، فترى بعضَ مباحث كارْل مارْكِس فى الصَّعْلَكَة وترى الاشتراكيةَ مُشْبَعَتَيْن من مبادىء هِيغِل الفلسفية ، وظَلَّت الجَذْرِيَّة (الرَّاديكالِيَّةُ) تستلهم مبادىءَ أُوغُوسْت كُونْتَ طويلَ زمنٍ ، وتُبْصِر النِّقابِيَّة الثَّوْرِيَّة تستوحى الفلسفةَ الوجدانية ، وتُبْصِر الكاثوليكيةَ العصريةَ تستوحى فلسفةَ الذرائع .

وإذا عَدَوْت ذلك التأثيرَ الذى لا جِدال فيه والذى يُشْتَقُّ ، فى الغالب ، من الأوهام التى تَعْدِل أوهامَ علماء اللاهوت أمكنكَ أن تقول إن الفلسفة أَلْقَت أنواراً حقيقية على كثير من الموضوعات ، والفلسفةُ هى أول من أثبت أن معرفة العالَم الخارجىِّ تقوم على تفسيراتِ الحواسِّ وأن الحقيقة أمرٌ يَتَعَذَّر الوصول إليه ، وهكذا بَدَتْ للأنظار نِسْبِيَّةُ التصورات البشرية ، قال نِيتْشِه : « إن الفلاسفة هم الذين اخترعوا العِلَلَ والتعاقبَ والنهائيةَ والنِّسْبِيَّة والجَبَرية والعَدَد والقانون والحرية والكيفية والغاية » .

ودَوْرُ الاكتشافات الفلسفية ذلك هو عِنْوانُ طَوْر آفل ، وفى الدَّوْر

الجديد الذى دخلت الفلسفة فيه عادت الفلسفة لا تأتى بوسائلَ للتفسير بل تأتى بوسائلَ للتصميم .

وشأنُ الفلسفة إذا ما زال كعاملِ اكتشافٍ تَرَك ، على الأقل ، طِرازاً للتفكير يُعَبَّر عنه بالروح الفلسفية ، ويقوم هذا الطِّراز على استخراج العامِّ من الخاصِّ وعلى الإتيان بمُرَكَّباتٍ من موادَّ صغيرةٍ يجمعها ألوفُ الباحثين .

وحُقَّ للعلم الحديث أن يستخفَّ بالفلسفة لسَبْقِه إياها بأبحاثه ، ولكنه لن يستغنىَ عن الروح الفلسفية ، فالروحُ الفلسفية فى كلِّ زمن هى التى تَسْتَنْبِط المبادىء العامة من أعفار الوقائع ، ثم تُوَجِّه هذه المبادىء ، على وجهٍ غير شموريّ فى بعض الأحيان ، مباحثَ الباحثين الذين لا يُحْصَى عددهم ، فعلى هذا الوجه يَتَغَذَّى كلُّ جيلٍ بمبدأيْن أو ثلاثة مبادىء من العقائد حتى يحين الوقت الذى تُقْلَب فيه هذه المبادىء رأساً على عَقِب .

الفصل الخامس

بناء المعرفة العلمي

١ . التفسير العلمي للحوادث ـ ٢ . المعرفة الوصفية للحوادث ـ
٣ . الانتقال من الكيفي إلى الكمي ، قياس الصلات بين الحوادث ـ
٤ . شأن التجربة والترصد ـ ٥ . المناهج العلمية للبرهنة .

١ — التفسير العلمي للحوادث

إننا ، بنفوذنا دائرةَ المعرفة العلمية للحوادث ، نَدْخُل عالَماً جديداً تامَّ الجِدَّة ، ففيه ترى تَغَيُّر مناهج الدرس وتَغَيُّر التفسيرات والنتائج ، وفيه ترى أن الإنسان ، وقد خرج من نفسه في آخر الأمر ، اكتسب سلطاناً عظيما على الطبيعة التي استعبدته استعباداً وثيقاً في قرون طويلة .

وما دَرَسْناه آنفاً من يقينٍ دينيّ وفلسفيّ وخلقيّ فقد كان شخصيًّا ، فذلك اليقينُ إذ كان لاصقاً بنا لم يَسْتَنِد إلى غير العناصر العاطفية والدينية ، وذلك اليقين إذ كان تابعاً لآراء زمنٍ ما خَضَع لتقلبات هذه الآراء .

ومناهجُ العِلم قد اسْتَبْدَلَت بتلك الحقائقِ الشخصية حقائقَ غيرَ شخصيةٍ يمكن إثبات كلِّ واحدة منها على حِدَة فتكون في مَعْزِلٍ من الجَدَل ، وأدَّى البحث العلميُّ إلى انتقال الروح البشرية من الباطنيِّ إلى الخارجيِّ .

وتفسيرُ الفلاسفة للحوادث كان ، كالتفسير العلمىّ ، خاصًّا بدائرة العقل ، ولكن عقل الفلاسفة إذ كان يتناول وجهاتِ النفس المستنبطة من ملاحظاتٍ بعيدة من مراقبة التجرِبة ظلّت مبادئهم باطنيةً ، والعِلمُ وحده هو الذى أدخل الإنسانَ إلى دائرة خارجيةٍ كان يجهل علمُ اللاّهوت والفلسفةُ وجودَها .

ولم ترتسم خطوط معرفة العالم الحقيقية إلاّ باكتساب مناهجَ وثيقةٍ للترصُّد والتجرِبة ، وترِدُ أوائل هذا التطور إلى عصر النهضة .

ونَجَم عن الدِّراسات العامية الأولى للحوادث طَعْنُ التفاسير اللاهوتية فى الصميم ، وذلك بإثباتها أن العالم خاضعٌ لسُنَنٍ ثابتة لادخل فيها لهوَى العزائم العلويَّة .

وأسفر توسيعُ مَدَى ذلك المبدأ بالتدريج عن بلوغ العلم مبادىء جديدة ، والإنسانُ ، إذ عَدَل عن مطالبة آلهته بتفاسيرَ لم تُعْطِه إياها ، وَلّى وَجْهَه شَطْرَ العِلم الذى غدا لدى الكثيرين معبوداً يُؤْمَل منه كلُّ شىء .

ومع ذلك لا ينبغى أن يطالَبَ العِلْمُ بغير مايستطيع أن يُعْطِيَه ، فللعِلم وجهان مُحيِّران فى الحقيقة ، فهو قادر على حلِّ مسائلَ هائلةٍ ، وهو عاجزٌ تجاه مسائلَ كثيرةِ البساطة فى الظاهر ، والعِلمُ ، وإن اكْتَشَف البخارَ والكهرباء وأخضع قُوَى الطبيعة لاحتياجاتنا ، لم يَسْتَطِعْ أن يقول لنا السببَ فى أن حَبَّة البَلُّوط تصبحُ سِنْديانَة ، وفى أن الحجر الذى يُرْمى فى الهواء يَسْقُط ، وفى أن قضيب الشمع الذى يُدْلَك يجتذب الأجسامَ الخفيفة ، فالحقلُ العامىُّ حافلٌ بالمسائل التى تَظَلُّ بلا جواب .

ويزول ذلك التناقض بين مُنْتَهى القدرة ومنتهى العجزِ عند إدراكنا مناهجَ العِلم وغايتَه وحدودَه ، وإن شئت فَقُلْ جهازَ بناء المعرفة .

٣ — المعرفة الوصفية للحوادث

تتكشف جميع الحوادث التي يتألف الكون من مجموعها بما تسفر عنه من الانطباعات على حواسنا ، فالحواس تظل واسطة بين الكون الحقيقي و بيننا .

والعقل ، حين يفسر تلك الانطباعات ، يأتينا بصورة تقبل على أنها صورة صادقة للعالم الخارجي و إن لم تشابهه .

ولا تفوتنا طبيعة الأشياء الحقيقية إلا لأننا نعرف العالم الخارجي من خلال حواسنا فقط ، ولو افترضنا أن الحواس تُرينا الكون الحقيقي وأن الصوت ليس وليد أذننا وأن الضياء ليس نتيجة تركيب شبكة عيننا لظلت معرفتنا للأشياء ناقصة أيضاً ، مادامت حواسنا والأجهزة التي توسع مداها لا تكشف لنا عن غير أجزاء قليلة من العالم الحقيقي ، والعين ، مثلاً ، لا تبصر سوى عشر الطيف اللامع ، والعين لو كانت قادرة على تمييز الإشعاعات التي تصدر عن ذوات الحياة بسبب درجة حرارتها لأمكنها أن ترى ذوات الحياة هذه في الليل ، والكائن الذي نبصره هو شكل وهمي ناشيء عن حواسنا ، فلو انتهينا إلى تأمله كما هو في الحقيقة ، أي محاطاً ببخار الماء الذي يتصاعد منه و بالشعاع الذي ينشأ عن حرارته ، لبدا هذا الكائن لنا ذا منظر سحابي متبدل الاستدارات .

وحواسنا إذ كانت لا تستخلص من الحقيقة غير ماهو سهل الالتقاط كانت الصور التي تقتطفها حواسنا من الحقيقة مصنوعة إلى الغاية بحكم الضرورة ، ونحن لا نرسم سوى الظواهر بجعلنا في المتصل منقطعاً وفي غير المحدود محدوداً ، و إذا ماقيل إن استدارات الجسم الحقيقية لا تقف إلا حيث ينقطع هذا الجسم عن الحركة

وَجَبَ أن يقال إن هذه الاستدادات لا تقِفُ أبداً ، فقطعة المَعْدِن فى اليد تتحرك لتجاذبها هى وأبعد الكواكب ، وتبادلهما الإشعاع ، فلا تُوجَد ، إذَنْ ، فى الفضاء حدودٌ غيرُ التى يرْسُمها إحساسُ حواسِّنا أو أجهزتنا ، ونحن إذا ما ثَبَّتْنا هذه الحدودَ لم يكن ذلك حيث ينقطع الجسم عن الحركة ، بل فى المكان الذى يعود غيرَ مُؤَثِّر فى حواسِّنا الناقصة .

إذَنْ ، تُوجِد ذواتُ الحياة ، أو تُحَدِّد ، على وجهٍ مصنوع ، عناصرَ الكَوْن بحسب إمْكانِيَّاتها الإحساسية .

ويكون لمخلوقاتٍ ذاتِ حواسَّ مختلفةٍ عن حواسِّنا رأيٌ فى الكون غيرُ رأينا ، ومن المحتمل أن يكون من شأن حواسِّ بعض الحيوانات شعورُ هذه الحيوانات بصِفَاتٍ مجهولة لدينا ، فالحقُّ أن كثيراً من الحيوانات يُرَى فى الظَّلْماء ، وأن حيواناتٍ أخرى ذاتُ حِسٍّ فى معرفة الجهات ، وأن بعضاً منها ذو إدراك للوقت قبل حلوله الخ ، ولو كانت هذه الحيوانات من الذكاء بحيث تحاول تبليغَنا انطباعاتِها لَعَجَزْنا عن فهم لغتها كعَجْز الأكْمَه[1] عن فَهْم الألوان مادامت هذه اللغةُ تُعَبِّر عن صفاتٍ غير معلومة عندنا .

وليس للعلم ، مع ذلك ، أن يشتغل بالحقائق بعينها ، أىْ بكُنْهِها كما يَسْعَى إليه الفلاسفة ، ولا أن يعارِضَ الظواهرَ بالحقائق ، أى الحوادثَ التى تُوحِى بها حواسُّنا ، ومن حواسِّنا هذه تتألف معادلاتٌ سَهْلَةُ المَدْخَلِ لأشياء ممتنعةِ المدخل ، والانحرافاتُ التى هى وليدة حواسِّنا إذ كانت متشابهةً لدى جميع الموجودات التى هى من طِرازٍ

(١) الأكمه : الأعمى المولود أعمى .

واحد أمكن العلمَ أن يَعُدَّها حقائقَ وأن يَشيدَ صَرْحَه بها ، ونحن ، إذا لم نَبْلُغ الحقيقيَّ ، نُدْرِكُ صورةً معادلة للموجودات المُرَكَّبة مثلنا .

والعلمُ ، في مباحثه ، لا يكترث لهذه الملاحظات مع ذلك ، فهو لا يبالى بكَوْن العالَم الذى نُبْصِره حقيقيًّا أو غيرَ حقيقيٍّ ، والعلمُ يرضى بالعالَم كما يبدو فيسعى فى ملاءمته غيرَ باحثٍ عن رأى الحشرة فيه وعن حيازةِ ساكنِ الشِّعْرَى (١) أو أيِّ كائنٍ عالٍ لحواسَّ أخرى ، فمعارفُنا على قَدَرِنا ، ونحن لا نَهْتَمُّ بها إلَّا لأنها على هذا القَدَر ، ونحن نعرف من الكون ما نصل إلى اكتشافه ، ونحن ، إذ نكتشف فيه كلَّ يومٍ أشياء أكثرَ من قبل ونُدْرِك هذه الأشياء بأدقَّ من قبل ، نرى بُنْيانَ معرفتنا يَعْظُم على الدوام .

٣ — الانتقالُ من الكَيْفِيِّ إلى الكَمِّيِّ ، قياسُ الصِّلات بين الحوادث

تُرَدُّ المعرفةُ الحقيقية للحوادث إلى الدَّوْر الذى اكتسب العلمُ فيه لغةً يُعَبِّر بها عن العلائق العَدَدِيَّة المستقلة عن كلِّ تقدير شخصىٍّ ، والعلمُ قد وُفِّقَ لذلك بالانتقال من الكَيْفِيِّ إلى الكَمِّيِّ .

ولا يكون علمٌ بغير ذلك التطور ، وعلمُ النفس والتاريخُ إذ لم يَتَّفِق لهما ذلك ظَلَّا مبهمَيْن مذبذبَيْن عُرْضَتَيْن لتفسيرات متناقضة .

وتَدُلُّ أبسط الملاحظات ، فى الحال ، على الهُوَّة بين التقديرات الكيفية والكَمِّيَّة للحادثة الواحدة ، ويَعْنِي القولُ بأن الجسم ثقيلٌ أو بارد أو حارٌّ انطباعاً يمكن أن يختلف باختلاف الأشخاص أو بحسب حالة الشخص الفيزيولوجية ،

---

(١) الشعرى : الكوكب الذى يطلع فى الجوزاء وطلوعه فى شدة الحر .

ويَعْنِي التعبيرُ عن ثِقَل الجسم أو درجةِ حرارته بالرَّقْم تخليصَ الملاحظة من كلِّ تفسير شخصيّ .

والعالِمُ يزيد عِرْفاناً بالعالَم ، أو بعلاقاتِ الأشياء بعضِها ببعض ، بزيادة تلك القياسات ، أو التعريفات المضبوطة التي تَعْدِل القياساتِ في العلوم البيولوجية بعضَ العدول ، والعالِمُ يُبْصِر سَيْرَ الكواكب ويكتشفُ تركيبَها ويقرأ في بقايا الموجودات تاريخَها فيُوَسِّع دائرةَ تصوراته الذهنية التي كانت ضيقة كثيراً لدى من ظهروا قبلنا .

وغايةُ العلم الأساسية ، وهي التي يَسْعَى إليها بعنادٍ ، هي ، إذَنْ ، إقامةُ صِلاتٍ كَمِّيَّةٍ بين الحوادث ، والكَمِّيُّ إذا كان عِنْوَان دور الإحساس البرهانيِّ فإن الكيفيَّ هو عِنوانُ دَوْر الغريزة المبهمة ، والكَمِّيُّ يسيطر على الكوْن فينطوي على إيضاحه .

٤ — شأن التَّجْرِبَة والتَّرَصُّد

وكيف يُوفَّق العلم لتعيين العلائق العددية بين الحوادث ؟

هو يَصِلُ إلى ذلك بالترصد والتجربة ، وذلك لأن الحوادث لا تُدْرَك إلا لظهورها حَرَكَةً ، أيْ تَغَيُّرَاتٍ ، فما كانت الحرارة والكَهْرَبَة وجميعُ وجوه الطاقة لِتَبْدُوَ لنا إلاَّ بفضل انتقالاتِ الأجسام ، وتنشأ الصفات التي تُقَدَّر بحواسِّنا ، في كلِّ وقت ، عن التَّغَيُّرات المادية المَرْئِيَّة أو الخَفِيَّة ، وتدلُّ جميع آلات القياس ، كميزان الحرارة ودليل التَّيَّار الكَهْرَبِيّ الخ ، على مثل تلك الانتقالات ، فيجب ، لإدراك

إحدى الحوادث جيداً ، إذَنْ ، أن تَخْضَع هذه الحادثةُ لتحوُّلات مؤدية إلى حدوث حركاتٍ .

ومن الممكن ، بل من الراجح ، أن تشتمل الطبيعةُ على شيء آخَر غيرِ الحركة ، ومما لاريب فيه أن جميع الحوادث ليس من أصلٍ مُتَحَرِّكِ الأجزاء ، بَيْدَ أن تركيب حواسِّنا أو تركيبَ الآلات التي تُكمِلها يَمْنَعنا من معرفة الحوادث التي ليست من مثل ذلك الأصل المُتَحَرِّك الأجزاء .

إذَنْ ، يقوم العلم التجريبيُّ على قياسات ، ومن الممتنع حيازةُ قياساتٍ دقيقة فلا نَعْرِف أيةَ جسامةٍ فيزياوية بضبط وَثيق ، ومن المتعذر ، أيضاً ، صُنْعُ مترَيْن متساويَيْن ، فكلُّ ما يمكن صنعُه هو أن نُقَدِّر ، بعد عملٍ شاقّ ، درجةَ اختلاف مترٍ عن مترٍ آخرَ اتُّخِذَ نموذَجاً ، ووزنُ الكيلوغرام الصحيح يَظَلُّ أمراً مجهولاً على الرغم من الجهود المُكَرَّرَة التي بذلتْها عِدَّةُ أجيال من علماء الفيزياء منذ قرن[1] .

إذَنْ ، يَصْعُب بلوغ الضبط في المقاييس الذي هو من أهمِّ أهداف العلم ، ولن يُوصَل إلى الضبط المُطْلَق ، لأن القيمة الحقيقيةَ لأيةِ جسامةٍ فيزياوية أو كيماوية لا تُعْرَف بالضبط كما قيل آنفاً ، وكلُّ مانَعْرِفه بشيء من الضبط هو قياس درجة عدم ضبطنا ، أي الدلالةُ على حدود الأغاليط .

---

(١) وإليك الأرقام التي انتهى إليها أهم علماء الفيزياء الذين حاولوا توطيد وزن كيلو غرام واحد، أي وزن عشر متر مكعب من الماء كما ذكر كولسون :

٩٩٩ غرام و ٨٤٧ ، ٩٩٩ غرام و ٨٩٠ ، ٩٩٩ غرام و ٩٧٨ ، ٩٩٩ غرام و ٩٥٥ .

فإذا ماقابلنا بين أعلى تلك الأرقام وأقلها كان عدم الضبط مقدار ديسيغرام .

obeikandi.com

ومهما يكن نقص هـذه النتيجة فإنها لم تُبْلَغ إلا بعناء كبير جدًّا ، وفى هذا سِرُّ ماقضاه بعض العلوم الأساسية من طويلِ زمنٍ لتحقيق تقدُّمه كعلم الفلك والفيزياء والكيمياء .

وقلَّتْ معرفة من هم غرباء عن العلم لأهمِّيَّة تلك القياسات ، ولا سيما فائدةَ الكُسُور العُشْريَّة غيرِ الثابتة التى يَبْذُل العلماء مجهوداتٍ كبيرةً فى سبيلها ، وهؤلاء العلماء ، فقط ، هم الذين يعلمون أن الكُسُور العُشْرية تنطوى على أسرار الأمور مع صعوبة بلوغ تلك الكُسور ، فبفَضْل البحث العميق فيها اكْتُشف غازُ الأرغون وجميعُ الغازات اللازمة له ، ويَتَّبع كلَّ تقدمٍ فى القياسات تقدُّمٌ مهمٌّ فى العلم ، حتى فى الصِّناعة ، فقد تَحوَّلت المِدْفَعيَّة الحديثة عند ما أصبح عُشْر المليمتر قياساً دارجاً فى معامل البنادق والمدافع ، ولو استطعنا ، سابقاً ، قياسَ جزءٍ من ألف جزء من ثانيةِ قوسِ الدائرة بدلاً من عُشْرها لكان علم الفلك قد تغيَّر تغيُّراً تامًّا ولكنا قد اكتشفنا قوانين حركات الكواكب البعيدة التى افْتَرَضَت القياساتُ القديمة سكونَها فى الفضاء مع أنها تنتقل بسرعة عظيمة إلى الغاية ، ولو أمكن الميزانُ أن يَكْشِف عن جزء من مئة ألف جزء من أجزاء المليغرام لكان أمر تحويل المادة معروفاً منذ طويلِ زمنٍ .

ولا يَكْشف ميزانُ الحرارة ، المؤسَّسُ لتعيين تحولاتِ حَجْم المادة بحسب الحرارة ، عن غير جزءٍ من مئةٍ من الدرجة ، ويُؤدِّى مقياس الحرارة الكَهْرَبِىُّ ، المؤسَّسُ على فكرة المقاومة الكَهْرَبيَّة للمعادن تحت تأثير الجوِّ ، إلى قياسِ جزء من مليونٍ من الدرجة ، ويُعلِّمُنا أن الطَّيْفَ الشمسىَّ أوسعُ مما كان يُفْتَرَض ، ولا رَيْبَ فى أنه سيكون لهذه الملاحظة تأثيرٌ كبير فى معارفنا فى علم الجوِّ الذى لا يزال ابتدائيًّا .

ولكلِّ نظام للحوادث ردُّ فعلٍ يؤدى إلى تحقيقه وقياسِه ، وجَعل اكتشافُ رَدِّ فعلٍ محسوسٍ على مسافة كبيرة ، ذاتِ أمواجٍ أثيريَّة ملازمة لكلِّ إطلاق كهْرَبِيّ ، أمرَ البَرْقِ اللاسلكيِّ ممكناً ، أجَلْ ، إن قُوَى الطبيعة كثيرةٌ إلى الغاية على ما يحتمل ، ولكن معرفتها تستلزم اكتشافَ رَدِّ فعلها فى بدء الأمر .

٥ — المناهجُ العلميةُ للبرهنة

لا يمكن أن يُؤْتَى بأية بَرْهَنَةٍ مفيدة من غير استناد إلى وقائعَ خياليةٍ أو حقيقية، ولا شىء يَحْدُث بالبرهنة الصِّرْفَة ، فالفكرُ الذى يُؤَثِّرُ فى نفسه غيرَ مستعينٍ بموادَّ تجىءُ من الخارج يَظَلُّ تأملاً فارغاً ، والمبدأُ المُجَرَّد العاطل من مُعِينٍ مُعَيَّنٍ (محسوس) لا يمكن تَصَوُّرُه .

وتَنْفَع البرهنة ، على الخصوص ، فى تفسير المشاهدات التى تأتى بها الحواسُّ ، والاستقراء والاستنتاج هما وجها البرهنة الأساسيَّيْن ، والاستقراء يُعَمِّم الأحوالَ الخاصَّة فيستخرج منها نتائجَ عامة، والاستنتاجُ يَسِير من العامِّ إلى الخاصّ، وتَتَرَجَّح الروحُ البشرية بين الاستقراء والاستنتاج على الدوام .

والتعميمُ عمليةٌ ذهنية طبيعية تَحْدُث حتى عند الفِطْرِيِّين إلى الغاية ، وتُفْضِى التصوراتُ النفسية للحال الواحدة إلى التعميم وإلى توليد النتائج ، والنفسُ الدنيا فى التعميم كالنفسِ العليا ، وتختلف هذه عن الأولى فى معرفتها تحقيقَ قيمةِ تعميماتها ، فيمكن أن يقال عن التعميم ، إذَنْ ، إنه عنوانُ النفس العليا أو النفس الدنيا بحسب الوجه الذى يُتَّخَذ .

ومهما تكن مناهج البرهنة فإن اقتباساتنا تَسِير من المعلوم إلى المجهول على الدوام ، والمجهولُ نَفْسُه لا يُدْرَك إلا من خِلال المعلوم .

وجميعُ حوادث الطبيعة تابعٌ بعضُه لبعضٍ اتباعاً متقابلاً وثيقاً ، وكثيرٌ من العوامل يمكن أن يساعد على إحداث كلٍّ واحدة من تلك الحوادث ، والواقعُ أن من المُهِمِّ أن يُعْرَف تعيينُ الشأن الحقيقيِّ أو الظاهر لتلك العوامل ، ولا سيما درجةَ أهميتها ، وهـذا ما يُؤَدِّى إليه المِنهاج القياسىُّ الذى استعمله كلود برنار فى مباحثه استعمالاً مُوَفَّقاً ، ويقوم هذا المِنهاج على تـكرار التجرِبة عندما تلوح هذه التجرِبةُ تابعةً لأحوال كثيرة ، وذلك مع تغيير واحدةٍ من هذه الأحوال دفعةً واحـدة ، ومِنهاجٌ خصيبٌ إلى الغاية كهذا المِنهاج ، مع نسيانه كثيراً ، يُطَبَّق على المسائل الصِّناعية مثلَ تطبيقه على المسائل العلمية ، فقد حَوَّل المهندسُ العالِم الأمريكىُّ تِيلَرُ صِناعة الفولاذ بتخصيصه خمساً وعشرين سـنةً للبحث فى تعيين عَمَلِ مختلف العوامل التى يمكن أن تُؤَثِّر فى صنع المعـادن ، وَتِيلَرُ هـذا ، بعد أن اكتشف بضعَ عشراتٍ من التحولات المستقلة لم يُغَيِّر سوى واحـدٍ منها دفعةً واحدةً فى كلِّ تجرِبة .

والصِّلاتُ التى تَجْمَع بين الأمور إذ كانت كثيرةً جدًّا لم تَسْطِع ملاحظاتُنا وتفاسـيرنا للحوادث أن تـكون تامَّةً ، ومن ذلك أن الـكوكب لا يَتَّبِـع السَّيْرَ الذى تُقَدِّره النظرية له ، وأن الجسم لا يَسْقُط عموديًّا ، فيبقى من كلِّ إيضاحٍ ، إذَنْ ، بعضُ الرواسب التى يجب على العلم الراقى أن يبحث عن أصلها ، ويُؤَدِّى تفسير هذه الرواسب إلى بعض الاكتشافات على الدوام ، شأنُ لُوِفِيرْيه الذى دَرَسَ علل

الاختلالاتِ الصغيرة ، التى لم توضح ، فى حركة إحدى السيارات فأسفر درسه هذا عن اكتشاف كوكب نِبْتُون الذى كان مجهولاً ، وشأنُ رامْزِى المشهورِ الذى بحث عن مصادر الاختلافات الجزئية المُشاهَدَةِ فى تركيب الهواء فحقَّق وجودَ ما كان مجهولاً قبله من غاز الأرغون والغازات الكثيرة فى غُضُون الجوّ .

ومن الملاحظات السابقة تَرَى التفسيرَ أصعبَ من التَّرَصُّد إذَنْ ، والتفسيرُ ليس وليدَ المصادفة أبداً ، بل وليدُ التأملات الطويلة ، ومن الحوادث العلمية عددٌ كبير ظَلَّ تفسيره مجهولاً فغدا خصيباً إلى الغاية بعد أن أُدْرِك معناه ، ومن ذلك أن إطلاق الجسم المُكَهْرَب باللَّهَب ظَلَّ معروفاً مدة قرن تقريباً من غير أن يدور فى خَلَدِ أحدٍ أن تفسيرَ هذه الظاهرة يمكن ، كما أثبتُّ فى كتاب آخر ، أن يُؤَدِّىَ إلى نظرية تلاشى المادة التى كان يُعْتَقَد خلودُها فيما مضى .

وجميعُ معارفنا إذ كانت قائمة على تَبَيُّن العلاقات بالمقايسات ، كانت المقايسةُ دليلاً ثميناً فى البحث ، والمقايسةُ تُؤَدِّى إلى تقريب الحوادث المتشابهةِ بعضِها إلى بعض والبحثِ فى مشابهاتها واختلافاتها ، ومعرفةُ المتشابهات الخفيَّة وحذفُ المتشابهاتِ الخادعة أمرٌ صَعْب إلى الغاية .

ولَمَّا اكتشف فُورْيه قوانينَ انتشار الحرارة من خِلال جدارٍ وبَيَّن أن كَمِّيَّة الحرارة التى تخترقه هى بنسبة اختلاف الجوّ وبنسبةٍ معكوسة من مسافةِ وجودِ الجدار لم يَبْقَ غيرُ استبدالِ كلمةِ التَّوَتُّر بكلمة الجوّ وكلمةِ السُّلْكِ بكلمة الجدار

وُصُولاً إلى قانون انتشار التَّيَّار الكَهْرَبِيّ ، وكان إدراك هذا القياس ، مع ذلك ، كثيرَ الصعوبة عندما اكتشفه أوهْم فقضى عشرَ سنواتٍ فى حَمْل الناس على الاعتراف بصحته ، وكذلك خَفِيَ على الأنظار عند ما أبْدِيَ مبدأ كارْنُو القائمُ على مقايسة سقوط الحرارة بسقوط الماء والذى أسفر عن تحويل الفيزياء الحديثة ، فقضى علماء الفيزياء ، الذين شاهدوا أهميته ، خمساً وعشرين سنة قبل أن يُدْرِكوا أنه يُطَبَّق على جميع وجوه القوة ، لا على الحرارة وحدَها ، وهنا ، أيضاً ، كان إدراك هذا القياس أمراً صَعْباً فى بدء الأمر فأصبح بديهيًّا فى هذه الأيام .

أَجَلْ ، إن تلك المقاييسَ البعيدةَ تُؤَدِّى إلى اكتشافات عظيمة ، ولكنها تتطلب زمناً كبيراً ، فقد انتظر الناس ألوفَ السنين حتى ظهر علماء الطبيعة الذين استطاعوا أن يَعْرِفوا أن الجمجمة هى فَقَرَةٌ مُحَوَّلة وأن الجنينَ يُكَرِّر بعضَ الأطوار الموروثة للأنواع التى يُشْتَقُّ منها .

وإذا كان من العسير اكتشاف المقاييسات الخَفِيَّة تحت المختلفات فإنه يَعْسُر حَمْل الناس على قبولها أكثر من ذلك فى بعض الأحيان ، فنحن نَعِيش فى جَوٍّ من الأفكار المُقَرَّرة فنَعُدُّ من يُكَرِّهنا على تغييرها عَدُوًّا ، ولذا كان ، فى الغالب ، ما تَعْلَم من طِيلَة تفسير الوقائع الواضحة جدًّا ، ومن ذلك أن مَضَتْ عِدَّةُ قرونٍ لإثبات وجود جنسٍ للنباتات ، وأن مَنَح مَجْمَع أمستردام العلمىُّ ، فى سنة ١٨٥٠ ، جائزةً لعالِمٍ طبيعىٍّ ألمانىّ منكر لجنسية الأزهار ، والعلمُ لم

يستقرّ حَوْل مسألة التفسير هـذه التي غَدَت اليوم ابتدائيةً إلاّ منذ زمن قريب إلى الغاية (١) .

وتُعَدُّ الوقائع ، على العموم ، حوادثَ بسيطةً لا تبديل لها ، مع أن الأمرَ غيرُ هـذا ، فالحادثةُ ، هى ، كالإحساس وكالفكر ، مجموعةُ عناصرَ كثيرةٍ على الدوام ، ونحن نُهْمِل العناصرَ الثانوية عن تجريدٍ أو جهل ، ومما يَعُدُّه الجاهلُ أمراً ابتدائياً هو أن الجسم السريع الالتهاب يحترق إذا ما جُعِل فى لَهَب ، وهـذا الجسمُ ، مع ذلك ، مركَّبٌ مُعَقَّد ظلّ أمرُه غيرَ مُدْرَكٍ عِدَّةَ قرون ، أى إلى أن اهتدى لافوازيه ، بعبقريته ، إلى بعض عناصره التى ترانا بعيدين من معرفتها جميعها حتى اليوم .

والأمرُ المُحقَّق هو ، إذَنْ ، عِنْوانُ عملٍ تَدَخَّل فيـه تجريدٌ لا إرادىٌّ أو مقصودٌ .

ولا تَجِد وقائعَ بسيطةً ما دمتَ لا ترى فى الطبيعة حادثةً يمكن عزلُها تماماً ، ونحن نُحْدِث بساطتَها بما نأتيـه من تجريد نَعْزِلُها به من كلٍّ ما هو مرتبطٌ فيها ، فالأمر المعزول يُعْرَض مُشَوَّهاً إذَنْ .

---

(١) يمكننا أن نقول على العموم إن الحوادث كلما صعب ترصدها وتفسيرها سهل إيجاد إيضاح لها ، ومما أشرت إليه فى ذلك مؤلفات القرن السابع عشر العلمية حيث تبدو الإيضاحات مخالفة للصواب فى الطب ، وذلك كما يتجلى فى رأى أحد الأطباء المشهورين فى ذلك العصر غينول حول مرض پسكال ، فقد جاء فيه :

« ان پسكال يشكو من ارتباك فى الأمعاء مصدره سائل سوداوى ، فهذا السائل حينما يختمر يحدث أبخرة تنشأ عنها أعراض تختلف باختلاف أقسام الجسم التى تصيبها ، وذلك السائل يختمر لأنه يغلى ، والحرارة هى مصدر هذا الغليان ، فيجب فصد المريض فى ذراعيه ثم تنظيف جسمه بمسهل إذن » .

أعطى هذا الرجل الكبير مسهلا وفصد، ثم فصد ثانية، ثم أعطى مسهلا فلم يقف « غليان الأبخرة » فعولج بالإثمد (الأنتيموان) على مقياس واسع فمات من فوره .

obeikandi.com

ويجب أن ننظر إلى أكثر ما نعرفه من الحوادث ، كعمودية سقوط الحجر مثلاً ، لنرى كثرة العناصر التي تُنفَل في أثناء ترصُّدِها ، فإذا ما قلنا إن الجسم المتروك لنفسه يَسْقُط عَمُودِيًّا نكون قد أبدينا ملاحظةً بسيطة جدًّا كما يُفتَرض ، وليس الأمر كذلك مع ذلك ، وذلك لأن وسائلنا في القياس لا تُؤَدِّي إلى تسجيل جميع العوامل كحركة دوران الأرض وجاذبية القمر والشمس الخ ، اللتين يَفرِضُ تأثيرُهما في الجسم ، وهو يسقط ، خطَّ سَيْرٍ قريباً من الخطِّ العَمُودِيِّ ، ولكن من غير أن يكون عَمُودِيًّا .

ويحاول الرياضيون إدخالَ تلك المُؤَثِّرات الأجنبية إلى حساباتهم ، وذلك بإضافتهم إلى الدستور العامِّ لكلِّ حادثةٍ تصحيحاتٍ متتابعةً مُعَدَّةً لإبداء ما يَنْجُم عن العِلَل الثانوية من الشَّوَاذِّ ، ولا حَدَّ لهذه التصحيحات إذا ما أريدت الصحةُ المطلقة التي يتعذر بلوغها مع ذلك ، فالعِلْمُ لا يكون إلا تقريبيًّا إذَنْ .

وجميعُ الحوادث إذ كانت متشابكةً تُؤَدِّي معرفة إحداها إلى اكتشافِ حوادثَ أخرى كثيرةٍ في الغالب ، قال كوفيه :

« يوحي أثرُ رِجْلِ ذي الظِّلْفِ إلى الناظر بشكل أسنان الحيوان الذي مَرَّ وشكلِ فَكَّيْهِ وشكلِ فِقَرَاته وشكلِ عِظامِ ساقَيْهِ وفَخِذَيْهِ وكَتِفَيْهِ وحَرْقَفَتِهِ » .

وبفضل تشابك الحوادث نَقْدِر ، في الغالب ، على تَمَثُّلِها من غير أن نُدْرِكها ومن غير أن يَدُورَ جهازُها في خَلَدِنا ، قال بِرْتِلُو :

« قدرتُنا أبعدُ مدًى من معرفتنا ، و بعضُ شروط الحادثة الواحدة إذ كان معروفًا لدينا معرفةً ناقصة يكفى تحقيق هــذه الشروط الناقصة ، فى الغالب ، حتى تبدُوَ الحادثة على مجــال واسع ، وما فتِئَ تقلّبُ السُّنَن الطبيعية ينْمُو ويُتِمُّ نتائجَه على أن يقع على وجه ملائم ... والقوَى ، بعد أن تبدأ بالسَّيْر ، إذا كانت لا تتبع بنفسها ما بدَأَتْ به من عملٍ فإنه يتعذر علينا تقليدُ أيةِ حادثةٍ طبيعية واستحصالُها على وجه مصنوع ، وذلك لعدم معرفتنا أيةَ حادثةٍ معرفةً كاملة ، وذلك لأن معرفة كلِّ حادثة معرفةً كاملة يتطلب معرفةَ قوانين جميع القوَى التى تتضافر على إحداثها ، أى على معرفة الـكوْن معرفةً تامّةً » .

obeikandl.com

الفصل السادس

القوانين العلمية ونظريات الحوادث

---

١ . القوانين العلمية ودرجة صحتها — ٢ . النظريات العلمية الكبرى وشأنها — ٣ . مبادئ الكون العلمية — ٤ . الحدود المفترضة لما يمكن معرفته .

---

١ — القوانينُ العلميةُ ودرجةُ صحتها

تدلُّ القوانين العلمية على العلاقات الكَمِّيَّة الثابتة بين بعض الحوادث .

وكانت القوانين العلمية عند كثير من الناس مثالَ اليقين المُطْلَق ، فَتُرِك هذا المبدأُ عند ما أصبحت المقاييسُ العلمية أدقَّ مما كانت عليه .

قال الأستاذ كُولْسُون : « إذا ما دَرَسْنا الحوادثَ الفيزياوية عن كَثَب أمكننا أن نَقْنَع بعدم وجود أىِّ قانونٍ فيزياوىّ حُقِّق تحقيقاً دقيقاً ، ففى جميع الحالات ، تقريباً ، نشاهد انحرافاتٍ على شىء من الاتساع فى تلك القوانين » .

ومن هذه الانحرافات نَعْلَم أننا لا نَعْرِف سوى بعض شروط الحادثات ، ونحن ، لكى نستخرج قانوناً ، نُضْطَرُّ ، كما ذكرتُ ، إلى حَذْف العوامل الثانوية بسبب كثرتها وصعوبةِ اكتشافها ، و بعضُ حوادث الطبيعة إذ كان تابعاً لبعضٍ فإن بعضَها يُؤَثِّر فى بعض ، ولم نَبْلُغ من اتساع الذكاء ما نُحِيط بها ، فنُحْدِث ، لذلك ، من

الانقطاع فيها ما لا نكترث معه لشير أهميًّا ، فهنالك يبدو القانونُ صحيحاً ضمنَ بعض الحدود تقريباً ما دامت العوامل المهملة ذاتَ تأثير ضعيف ، وهذا التأثير إذا ما عَظُم أضاع القانونُ صِحَّته وأمكن تلاشيه ، فخُذْ قانونَ ماريُوت مثلاً تجِدْه صحيحاً تقريباً في أمر الغازات البعيدة كثيراً من نقطة انحلالها وتجِدْه غيرَ صحيحٍ كلما اقْتُرِب من هذه النقطة الخطِرة .

ويظهر القانون وثيقاً أحياناً حينما لا يَكْشِف ما لدينا من آلات ناقصة عما فيه من عدم الصحة ، وهذا ما حَدَث في قوانين كِپْلِر الفلكية لعَجْز كِپْلِر عن ملاحظات الاختلالات التي يمتنع تبيُّنها بوسائلِ ترَصُّدِه عند ما صاغ تلك القوانين .

فالقوانينُ العلمية هي ، إذَنْ ، ضَرْبٌ من الحقائق المتوسطة ، والقوانينُ العلمية ، وإن كانت كافيةً عمليًّا ، ليست من الحقائق المطلقة .

ولا تستحقُّ القضايا الرياضية نفسُها أن تُوصَف بالمطلقة ، وبَيَّن هنرى پُوانكاره ذلك جيداً فلا أرى أن أُسهب فيه ، وإنني ، من غير أن أبحث معه في وُجُوه الهندسة الممكنة في عوالمَ غيرِ عالَمنا ، أَجِدُ من الكفاية أن أذكر أن أُسُس هندستنا الأقْليدِيّة نفسَها خياليةٌ ، وتُحدِّثُنا هذه الهندسة ، بالحقيقة ، عما يستحيل وجوده أو يستحيل تَصَوُّره من الأجرام ذاتِ البُعْدِ الواحد أو البُعْدَيْن ، مع أن الأجرام في عالَمنا لا تكون إلاّ ذاتَ ثلاثة أبعاد ، فالنقطةُ ، مهما بلغت من الصِّغَر ومهما كانت دون آخر الجراثيم ، فإنها ذاتُ ثلاثة أَبْعاد ، والخطُّ ، مهما دَقَّ فإنه ذو ثِخَن وعَرْض وطول ، أي ذو ثلاثة أبعاد على الدوام ، أَجَلْ ، يمكن إهمالُ

الأبعاد في الحساب ، ولكننا لا نستطيع بذلك أن نحرمها الوجودَ ، ونحن إذا ما اتخذنا النقطةَ حدًّا للكرة ، وإذا ما اتخذنا الخطَّ المستقيم حدًّا لا سطوانة الخ ، فإن الأشكال لا تفقِدُ خواصَّها لهذا السبب وتحافظ على أبعادها الثلاثة من حيث النتيجة .

إذَنْ ، لا ينبغى أن يُبْحَث عن المطلق فى الرياضيات كما لا ينبغى أن يُبحث عنه فى العلوم الأخرى ، والمطلقُ قد ظَلَّ مُهاجِراً طويلَ زمنٍ فى عالَم الحقائق الاعتدالية ، أى فى التأملات الهندسية ، بَيْدَ أن هذا العالَم ، كما يظهر ، ليس له ، فى الغالب ، أساسٌ سوى الافتراضات غير المحققة من بعض الوجوه [1] .

قال الرياضىُّ العَلَّامة إميل پيكار : « يَعْتَرِينا ذُعْرٌ حينما نَدْرُس أحدثَ الكتب عن مبادىء الهندسة فَنُبْصِرُ جدولَ القضايا المُسَلَّم بها التى لا بدَّ من وضعها ليكونَ لعلم الهندسة ما يُعْزَى إليه من الوُثوق المنطقىِّ » .

ولا أشاطر پيكارَ ذُعْرَه ، فالقضايا المُسَلَّم بها تُؤدِّى إلى وضع دساتيرَ رياضيةٍ وثيقة ، ولا أحدَ يجهل ما لمثل هذه القضايا من التأثير فى النفوس البسيطة ، فمن الحَسَن أن يُصْنَع فى الحين بعد الحين من الحقائق ما يُفْتَرض أنه مطلقٌ لما

---

(١) يجب ، كما نرى ، إتمام التعاريف القديمة للنقطة والخط المستقيم والمسطح على الوجه الآتى :
النقطة : هى شكل هندسى ذو ثلاثة أبعاد صغيرة إلى حد تهمل معه فى الحسابات .
الخط المستقيم : هو شكل هندسى ذو ثلاثة أبعاد يبلغ اثنان منها من الصغر ما يهملان معه فى الحسابات .
المسطح : هو شكل هندسى ذو ثلاثة أبعاد يبلغ أحدها من الصغر ما يهمل معه فى الحسابات.
الحجم : هو شكل هندسى ذو ثلاثة أبعاد لا يجوز أن يهمل أى واحد منها فى الحسابات.
ومن شأن هذه التعاريف الدقيقة أن تؤدى إلى قلب بعض مبادىء الهندسة الأساسية ، وهى تتضمن ، على الخصوص ، إمكان إمرار عدة خطوط متوازية من نقطة واحدة خلافاً لنص أقليدس المسلم به الذى حاولت أجيال كثيرة من الرياضيين إثباته على غير جدوى.

obeikandi.com

فى حيازته من تسلية للنفس ، والعلم مع أنه يدحرنا بالتدريج إلى النسبىّ والتقريبىّ ، ترانا نسلك سبيلَ المطلق على الدوام .

٣ — النظرياتُ العلمية الكبرى وشأنها

ترى مما تقدم أن صَرْح العلم يتألف من وقائعَ أُحْسِنَ تفسيرها ، غير أن شأن العالِم لا يقتصر على التَّرَصُّد والتفسير ، فالعالِم إذا حاز ما أُجيدَ إيضاحُه من الوقائع وَضَع من النظريات العامة ما هو شاملٌ لتفسير عدد كبير من الحوادث .

وعملُ العالِم هذا صَعْبٌ جدًّا ما دامت المبادىء الناظمة فى كلِّ دَوْرٍ قليلةً إلى الغاية مع أن الوقائع التى تُسْتَخرج منها لا يُحْصيها عدٌّ .

وبالوقائع تُمَدُّ الموادُّ الضرورية لتَشْييد النظريات العظيمة ، ولابدَّ من استخدام عُمَّال كثيرين فى اكتشافها قبل أن يتلاقى أرباب النفوس العالية القادرون على صُنْع التراكيب التى هى روح العلم .

قال هنرى پُوانْكارِه : « إن جمع الوقائع ليس عِلْماً كما أن كَوْمَة الحجارة ليست بَيْتاً » .

وقد يَحْدُث أن يَصِلَ الذى يَرْصُد الوقائع إلى تركيبها ، ولكن من القليل أن تلتقى قابلياتُ التحليل والتركيب فى العالِم الواحد ، وليس الرجال الذين استطاعوا منذ قرنٍ ، مثلُ لاَمَارْك ودَارْوين ، أن يُحَوِّلوا الفكرَ العلمىَّ تحويلاً عميقاً ، أكثرَ الرجال اكتشافاً للوقائع ، بل هم الذين عرَفوا أن يرَوا الروابط التى يرتبط بها بعض الوقائع ، المعلومةِ سابقاً ، فى بعض .

وإذ إن على النظريات كلِّها أن تستند إلى وقائع ، أى إلى نُبَذٍ من الأشياء ،

obeikandi.com

وإذ إن الوقائع تظلُّ ناقصةً ، دَوْماً ، اشتملت كلُّ نظرية على أجزاء افتراضية بحكم الضرورة ، وتُشابه النظريةُ في ذلك رَسْمَ علماء الآثار المبانى القديمة ، فبجانب العلامات الصحيحة توجد علائمُ مشكوكٌ فيها على الدوام .

ويدلُّ تاريخ العلم على درجة خِصْب النظريات العلمية العظيمة مع مافيها من أقسام مشكوك فيها ، وهذه الأقسامُ ، على ما فيها من مواطنِ الرِّيَب ، قد تكون كثيرة الفائدة بما توجبه من تحقيق ، ومن ذلك أن مبادىء دَارْوين فَرْضيّةٌ إلى الغاية ، ومع ذلك لاتَجِد مثلَها غيرَ مبادىء قليلةٍ أَثَّرت تأثيراً أساسيًّا في أفكار الجيل العلمية فأدت إلى مباحثَ كثيرةٍ ، فهى قد أسفرت عن إدخال فِكْرَة الاتصال إلى العلوم الطبيعية ، فَدَلَّت على إمكان إيضاح مالم يُرَ وَجْهٌ لإيضاحه علميًّا فيما مضى ، فغدا من المستطاع تركيبُ عالم يظهر إمكانُ وَصْلِه سابقاً ، أَجَلْ ، إنه لم يُثْبَت تَحَوُّلُ الموجودات بالانتخاب ، وإن من الممكن جدًّا أن تكون صفات الأنواع قد اكْتُسِبَت بغير التَّكَتُّلات الصغيرة الوراثية ، بَيْدَ أنه لا كبيرَ أهمية لذلك ، فالعالَم الذى أثاره دَارْوِينُ ظَلَّ مُثَاراً ، وبَقِيَ إمكان التحول بالوسائل الطبيعية أمراً سائداً ، وتلاشت نظريةُ الخَلْق المتتابع إلى الأبد وتَطَوَّرَ تفكير العلماء تطوراً عميقاً .

وقُلْ مثلَ ذلك عن مُعْظَم النظريات الكبيرة ، ومنها نظرياتُ پاسْتُورَ التى غَيَّرَت العِلْمَ تغييرَ نظرياتِ دَارْوِينَ له ، فجَدَّدَت صِناعاتٍ مهمةً ، وكَوَّنَت الطبَّ الحديث وكَشَفَت عن عالَم مجهولٍ ، ومع هذا زال أهمُّ ما كان لهذا العَلاّمة من الآراء الابتدائية .

ولا يجوزُ ، إذَنْ ، أن نَحْكُمَ في أمر النظريات من خِلال جزء الحقيقة التى

تشتمل عليه ، بل يجب أن نحكم فى النظريات من حيث ما تؤدى إليه من المباحث على الخصوص ، والنظرياتُ يمكن أن تمدَّ وسائلَ اكتشافاتٍ لا نظير لتأثيرها ، حتى عند النظر إلى فائدتها العملية الصِّرفة ، فهى تُوجِّه مباحثَ ألوف الباحثين ، والنظرياتُ لو أُقصِيَت ما كان هنالك عِلمٌ ولا اكتشافاتٌ ممكنة ، فمن الإصابة قولُ إميل پيكار : « إن الأفكار النظرية تبدُو بالتدريج بذرَةً خصيبة يَخرُج منها مُعْظم المُبتَكرات » .

وجميعُ نظرياتنا العلمية مُعدَّةٌ للتغيُّر لا ريب ، و إبداء مثل هذا القول يعنى أن العلم سيتقدم أيضاً ، والنظرياتُ لا تتغير لأنها فاسدة ، بل لأن اكتسابَ أمورٍ جديدة يَحْمل النظرياتِ على ملاءمة هذه الأمور ، والنظرياتُ تكون صحيحة فى الوقت الذى تُبدَى فيه، لإيضاحها الأمورَ المعروفة فى حينها ، و بالنظريات تُكتَشف أمور أخرى ، والنظريةُ التى توجب أموراً جديدة تتحول بهذه الأمور فيما بعد .

إذَنْ ، إن شأن النظريات العامة فى العلم عظيم ، والباحثُ الذى ليس لديه من النظريات ما يتّخِذه دليلاً يَظَلُّ ، على الدوام ، عاملاً بسيطاً منتظراً إلهاماتِه من المصادفة الخالصة أو من توجيهِ أستاذٍ له .

وبجانب ما للنظريات الكبرى من فائدةٍ بادية نَجِدُ محاذيرَ لها ، فلا تَلْبَث النظريات عند ذوى النفوس البسيطة أن تتحول إلى عقائدَ فيَدْخُل هؤلاء بذلك دائرةَ المعتقدات ، والمعتقدُ العلمىُّ يغدو عندهم كالمعتقد الدينىِّ الذى يُسَلَّم به من غير أن يُجادَل فيه ، وكان لِغائيَّةِ أرسطو وخِلقَاتِ كُوڤيه المتتابعة وانتخابِ داروين وما إلى ذلك من النظريات الكثيرة التى ظهرت وزالت فى غضون القرون قوةُ اليقين الدينىِّ فى إبّان سلطانها ، فما كان لأحدٍ أن يُنقِّب عن أُسُسها .

٥ — مبادىء الكون العلمية

لم يَظلَّ العلم قائماً ، دَوْماً ، على أساس دِراسة مابين الحوادث من علاقات وعلى الانتفاع بقُوَى الطبيعة ، فالعلمُ ، كالدِّيانات والفلسفات ، قد حاول أن يَنْفذ أسرارَ الكون الكبرى فيَعْرِفَ تركيبها .

والعلماء ، لكى يُحَقِّقوا ذلك ، لم يَقْدِروا ، بحكم الطبيعة ، على غير الانتفاع بما هو معروف من أجزاء الأشياء ، وإذ لم تزَلْ هذه الأجزاء قليلةَ العَدَد بَدَت المبانى التى شِيدَت غيرَ مُرْضية مع مبتكرات العلم الكثيرة .

وليست مبادىء الكَوْن العلمية الحاضرة كثيرةً مع ذلك ، مادام يمكن أن تُرَدَّ إلى نظريتين : النظرية الآلية والنظرية الطَّاقِيَّة .

وكانت النظرية الأولى ، التى تَرْجِع إلى ديكارْت ، أساساً لحسابات لابلاس فتَعُدُّ الطبيعةَ عنصرين أساسيَّيْن : الذَّرّ والحركة ، فتَجِد أن مجموع الذَّرّ هو الكوْن الثابت ، وأن جميع الحوادث من تراكيب حركات الذَّرّ .

واكتُشِف ، أو ظُنَّ أنه اكْتُشف ، حوالَى النصف الثانى من القرن الأخير أمرٌ ثابتٌ آخر ، وهو الطاقةُ التى لاح أنها تستطيع أن تقوم مقام الأولى فى تَفَهُّم الحوادث ، ومن دراسة هذا الأمر الآخر اشْتُقَّت النظرية الطَّاقِيَّة .

وجميعُ الحوادث ، بحسب هذه النظرية ، تُعَدُّ وليدةَ انتقالاتِ كيانٍ لا يَفْنَى ، أى الطاقة ، فتُطرَح جانباً مبادىء الكُتْلة والذَّرَّة والقُوَى فيُقْتَصرُ على قياس تقلُّبات الطاقة التى تلازم الحوادث .

وجميعُ الطاقات قابلٌ للتحول كما يظهر ، فيَنْتُج عن إحداها طاقاتٌ أخرى بسهولة ، فيمكن أن يُعبَّر بالوَحْدَة الواحدة عن مختلف مظاهر الطاقة ، فتُختارُ ، بحسب الأحوال ، الطاقةُ التي يَسْهُل قياسُها كالحرارة مثلاً .

وجَعَل المبدأُ الطاقيُّ إقامةَ الكَمِّيِّ مقامَ الكَيْفِيِّ في دِراسة الحوادث أمراً أسهلَ من قبل ، ولكن من غير أن يأتي بأيِّ إيضاح جديد لهذه الحوادث ، فنحن ، مع قياسنا بسهولةٍ نتائجَ الطاقة ، لا نَعْرِف شيئاً من طبيعتها ، وما شأنُ عمليات القياس التي تُحَقَّق بالطاقة إلا كشأن عامل السكة الحديدية الذي يَزِنُ الحقائبَ من غير أن يَعْرِف ما تحتويه .

وإمكانُ تحويل أيِّ شكلٍ للطاقة متى يُرادُ إلى أيِّ شكلٍ آخرَ يَعْدِلُه ، أي الإمكانُ الذي هو أساس صِناعتنا بأجمعها ، مما يُسَوِّغ حقيقةَ المبدأ الفلسفيِّ الذي كُنَّا قد ألمعنا إليه وهو : أن حوادث الطبيعة إذ كان بعضها مرتبطاً في بعض ارتباطاً وثيقاً فإن تغيير بعضها يُؤَدِّي إلى تغيير بعضها الآخر بحكم الضرورة ، والأمورُ تسير كما لو كان الكَوْنُ ضَرْباً من النظام ذي المفاصل الذي لا يُغَيِّر توازنَه في نقطةٍ من غير أن يَبْدُوَ ذلك التغيير في الأخرى على وجه معادل[1] .

وفي تلك النظريات يجب أن يُنْظَرَ إلى مناهج العمل فقط ، فيُعْدَل عن استنباط إيضاحاتٍ منها عن أصل الأشياء وتحولاتها ، على أن نظرياتٍ كتلك تَفْقِدُ قيمتَها إذا ما أريد انتحالُها في تفسير الحوادث التي نكترث لها أكثر من

---

(١) أحيل القارىء ، الذي يرغب في تفصيل تلك الملاحظات ، على الطبعة الثالثة عشرة من كتابي « تطور القوى » .

سواها ، أى حوادثِ الحيــاة ، وذلك بدلاً من تطبيقها على الأعمال الفيزياوية الـكيماوية .

٤ — الحدودُ المُفْتَرَضَة لِمـا يمكن معرفته

يشتمل بيانُنا السابق الوجيز على خلاصةِ ما نَعْرِفُهُ عن صَرْح حقائقنا العلمية والمناهج التى يُشَادُ بها ، ولا يكاد هذا الصَّرْح يُرْسَم فى الوقت الحاضر مع أنه كان يُظَنُّ بناؤه إلى الأبد ، وذلك لأن علمنا غدا أبعدَ غوْراً وأكثرَ ضبْطاً ، ويبـدو حرص ذلك الصَّرْح اليوم أصغرَ مما كان عليه ، فالعالِمُ إذ وَجَد نفسه تجاه اتِّساعٍ لا يزال مجهولاً تقريباً عاد لا يُفـكِّر فى تلك التراكيب الـكبيرة التى فتنت الفلاسفةَ فى جميع الأجيال .

ونحن ، إذ نَعْجِز اليوم عن فهم العالم فى مجموعه ، نرى أن ندْرُس نُبَـذاً منه ، ونحن ، قبل أن نكتشف السببَ الأول للحادثة الواحدة ، نَرَى أن نَعرِف سلسلةَ أسبابها المتعاقبة ، وهذا الموضوع هو من السَّعَة بحيث يجاوز حدودَ عقلنا ، فتاريخُ أىِّ جِرْم ، كتاريخ الحصاة مثلاً ، يستلزم معرفةً تامَّةً لجميع أسرار الـكون .

ومن ذلك لا نَسْتَنْتِـج ، مع كثير من الفلاسفة ، وجودَ أمورٍ لا تُعْرَف ، غير أنه يوجـد من الأمور الـكثيرة ما يمتنع على معرفتنا ، ولو كان للنظريات القائلة بما لا يُعْرَف أىُّ تأثيرٍ فى سَيْر العلم لبطَل كلُّ تقدُّم له ، ومما ذكرناه أن أوغُوسْت كُونْت كان يَعُدُّ تركيب الـكواكب الـكيماوىَّ ، الذى كَشَف عنه التحليلُ الطيفىُّ مؤخراً ، من الأشياء التى لا تُعْرَف ، فيرى من غير المفيد أن يُكْتَرث لها .

وتثبت الاكتشافاتُ الحديثة استحالةَ رَسْمِ حدودٍ للعلم وأن يُحْصَرَ العلمُ في دائرة من الحقائق المزعومة المحكوم بضرورتها ، فما يوصَل إليه ، على الدوام ، هو الاعتراف بأن هذه الحقائق غيرُ ضرورية ، ثُمَّ بعدم صحتها.

ومهما تكن حدود العلم الراهنة فإن اكتشافاته مَنَحَت الإنسان سيطرةً على الطبيعة ستساوى ، لا ريب ، ما عُزِىَ إلى آلهته القديمة ، وتَمْنَحه القُوَى العجيبة ، التى يستخدمها العالِمُ العصرىُّ ، قدرةً أعلى من قدرة الآلهة التى ذُكِرَت فى الأساطير القديمة .

الفصل السابع

الحقائق التى لا تزال ممتنعة

والوجوهُ المجهولةُ للمعرفة

١ . حدود معرفتنا للعالم الفيزياوى — ٢ . حدود معرفتنا لحوادث الحياة .

١ — حدودُ معرفتنا للعالَم الفيزياوىّ

اعترف العلماء والفلاسفة منذ زمن طويل أننا لا نُدْرِكُ من العالَم سوى الانطباعات التى يُؤثِّر بها على حواسنا ، لا الحقيقةَ نفسها ، فمن مجموع هذه الانطباعات تتألف حقيقتنا .

ويَسيرِ جميع اكتساباتنا النفسية وَفْقَ جهاز خاصّ ، وَفْقَ المقايسة ، ويقُوم هذا الجهاز على جعل صِلَةٍ بين أمور يكون أحدها معلوماً على الأقل ، ولم تَصِل النفس البشرية إلى طريقة استقصاء أخرى ، ولا يُعْرَف شىءٌ بغير قياس ، والقياسُ يكون على أدواتٍ معينة أو على أفكار مُجرَّدة ، ولكنه ثابتُ السَّيْر ، والأداةُ التامّةُ الجِدَّةِ الوحيدةُ فى الزمان والمكان والتى لا يمكن قياسُها بغيرها تُجَاوِز دائرةَ إدراكنا ، حتى إنها لا تدخل ضمن نِطاق الفكر ، فلا يُدْرِكُ أمرَها سوى ذكاء لا يشابه ذكاءنا ، والعالَمُ حافلٌ ، لارَيْب ، بأشياء مُمْتَنِعةٍ على نفوس عاجزة عن اكتساب معارفها بغير المقايسة .

obeikandi.com

والمقايسةُ إذ كانت تتضمن عنصريْن فإن كلَّ معرفةٍ يَبْدُو على شكل علاقاتٍ بحكم الضرورة .

وتسْهُل معرفة ذلك الشكل بأن يُحقَّقَ أن خاصيَّةَ الجسم لا تُعرَّف بالعلاقة ، قال العالم الفِيزْياوِيُّ الكبير هِيلْمهُولْتز : « تُرَدُّ كلُّ خاصيَّةٍ فى الشيء أو صفة فيه إلى قُوَّته فى إحداث بعض الأثر فى الأشياء الأخرى ، فعلى هذه الصورة تُدْعى قابلية الانحلال فى المادة بالوجه الذى تكون عليه فى الماء ، ويُدْعى الوزن بالوجه الذى يكون عليه مع جاذبية الأرض ، وما يُدْعَى بالخاصيَّة إذ كان يتضمن ، على الدوام ، علاقةً بين شيئيْن فإن الخاصيَّة أو العلاقة لا تكون تابعةً لطبيعة عامل واحد ، وهى لا تكون إلا كعلاقة ، أو تَبَعِيَّة ، مع طبيعة أداةٍ ثانية مُتقبِّلَة للتأثير »

فالعلاقاتُ بين الأشياء ، لا الأشياء ، إذَنْ ، هى الحقائقُ الوحيدة التى يمكن بلوغُها وقياسها ، وأيةُ صفةٍ ، صوتاً كانت أو لوناً مثلاً ، هى علاقةٌ بين أداةٍ خارجية و بين الحواسِّ ، والصفةُ إذ لا يمكن انفصالها عن الموجود الذى يُدْرِكها فإنها لا يمكن تصورُها خارجةً عنه .

إذَنْ ، يمكن العناصرَ المشتركةَ فى تأليف دائرة معارفنا أن تكون مختلفةً إلى الغاية ، وقد قامت جميع علومنا الفِيزْيَاوِيَّة بإقامة علاقاتٍ بين مقاديرَ مختلفةٍ كالزمان والمكان والقوة .

وأسفر اشتراك المكان والزمان عن عِلْمِ السرعة ، وأسفر اختلاط القوة بالمكان عن نظرية الطاقة ، وأسفر اشتراك القوة والمكان والزمان عن إمكان قياس القوة الميكانيكية .

obeikandi.com

وتلك الاشتراكاتُ مفيدةٌ جدًّا من الناحية العملية ، ولكنها لا تكشِفُ عن طبيعة الحوادث ، ومن البديهىِّ ألاّ نعلمَ شيئاً عن جوهر الجسم بأن يقال إن الجسمَ هو علاقةُ القوة بالسرعة ($\frac{ق}{س}$ = ج) ، ومن البديهىِّ ألاّ نعلمَ القوةَ بأن تُعرَّف بأنها علة الحركة أو بأن تُحْصَر فى الدستور (ج س = ق) الذى يُعَدُّ مُعادَلةً أساسية فى الميكانيكا الحاضرة ، أو فى الميكانيكا القديمة المدرسية على الأقل ، وذلك لأنه يَسْهُل قيامُ مناهجَ أخرى فى الميكانيكا بتغيير العناصر المشتركة .

والكَوْنُ هو ، إذَنْ ، مجموعةُ ما فى الإنسان من أفكار عن الكَوْن ، وذلك بفضل ما يُوَفَّق الإنسان لصُنْعِه من العلاقات المصنوعة بين الأشياء .

وهل لنا أن نأمُل بُلوغَ الحقيقة ؟ قد نبلُغها فى المستقبل البعيد جدًّا ، لا الآنَ بلا رَيْب .

قال هنرى پُوانْكاره : « إن الحقيقة ، المستقلةَ تماماً عن النفس التى تتصورها وتُبْصِرُها وتُحِسُّها ، أمرٌ مُحال ، والعالَم لو كان خارجاً عن النفس ، والعالَم لو كان موجوداً حقًّا ، لظلَّ مُمْتَنِعاً علينا ... والحقيقةُ المحسوسة الوحيدة هى علاقات الأشياء ، ولا يمكن تَمَثُّلُ هذه الأشياء خارجةً عن النفس التى تتخيلها أو التى تَشْعُر بها ... وكل ما ليس فكراً هو عدمٌ مَحْضٌ ، فالقولُ بوجود شىء غيرِ الفكر هو تَوْكيد لا معنى له » .

وتلك المزاعم تصبح بَدِيهيَّةً عند ما يُفكِّرُ فيها ، وهى التى صاغها الفلاسفة فى جميع الأجيال ، ومن قول پرُوتاغُوراس منذ ألفىْ سنة أنْ لا حقيقةَ خارجة عنا ، ومن قول غُورْجِيَاس : « ان الحقيقة المطلقة لو كانت موجودةً لأمكنت معرفتُها ، والحقيقةُ لو أمكنت معرفتُها لتعذر وصفها » .

وتَعَذُّرُ تَفَهُّمِ الكَوْن الحقيقىِّ هذا لم يُجَادِلْ فيه العلماء المعاصرون ولاقدماء

obeikandi.com

الفلاسفة ، وهم يعلمون أن كيفية الحوادث إذا ما أمكن الوصول إليها ظلّت سببيّتها مجهولةً فيعترفون بعجزهم عن اكتشاف أصول الأشياء ، وإليك كيف يُعبِّر عما في نفسه أشهرُ علماء الفيزياء بأوربة اللورد كيلڤن ، وذلك في عيده الخمسيني : « لم تتوّج مباحثي المتتابعة التي دامت خمسين سنة بأيِّ نجاح ، فاليومَ لا أعرف شيئاً عن الكهرباء والمغنطةِ والمطابقة الكيماوية التي لم أكن أعلم منها شيئاً عند ما ألقيتُ درسي الأول على تلاميذي » .

وحديثاً ألقى العالِمُ الفيزياويُّ الإنكليزيُّ المفضال ج . ج . تومسُن خطبةً أمام جمعية مهندسي الكهرباء فأجاب ، غيرَ صابرٍ ، عن الأسئلة التي طُرحت عليه بقوله : « لو كنتُ قادراً على الإجابة عن أسئلتكم لكنتُ قريباً من حلِّ مسائل الكَوْن ... فلا أعرف ما هي المادة ولا أعرف أصلَ الكهربة بأحسنَ من ذلك » .

وعلى ما نراه من اعتراف العلماء المتبحِّرين بعجزهم عن بيان السبب في سقوط الحجر وفي أن قضيبَ الصَّمغ يُحدِث كهرباء إذا ما دُلِك فإن مما يثير الدَّهشَ أن نرى الفلاسفة يزعمون إيضاحهم مُطوّلاً لمُعضِلاتِ الروح والحياة والشعور الخ ، الأكثرِ تعقيداً .

وذلك البحث الموجز في حدود معرفتنا للعالَم الفيزياويِّ وفي استحالة النفوذ في طبيعة الأشياء الصميمية يدعو إلى افتراضنا وجودَ عناصرَ يمكن أن يُدرِكها أربابُ ذكاء حائزون لطُرُز بحث مجهولة لدينا ، ويرى الفلاسفة اللاعقليّون المعاصرون أن الوِجدان يمكنه أن يكون من ذلك الطِّراز ، غير أن هذه الصِّفَةَ هي من قِلّة النَّفع في عِدّة قرون ما يَصعُب معه أن نأمُل منها إلهاماتٍ جديدةً ، فالوِجدانُ لم يَصنَع سوى خَلْق آلهة لا يُسلَّم اليوم بمزاعمها كوسيلةِ إيضاحٍ للحوادث .

٣ — حدودُ معرفتنا لحوادث الحياة

تبْدو الحوادث الفِيزْياوِيّة من البساطة الظاهرة ما تُخْفِى معه تَعَقُّدَها ، ويبدو تَعَقُّد الحوادث الحيوية من الوضوح مالا يُفَكَّر معه الآن فى تفسيرها بفرضياتٍ بسيطة ، ويكفى لتسويغ هذه الاستحالة ما نذكره من أكثر هذه الحوادث أهميةً .

تقوم صُغْرَى خَلِيَّات ذوات الحياة المترجحة بين الجُرْثُومَة والإنسان بأعمالٍ أرقى من الأعمال التى تتِمُّ فى معاملنا ومختبراتنا ، وذلك بفعل ما نَجْهَله من القُوَى .

وفى الموجودات التى هى على شيء من التقدم يُدَارُ عملُ الخلِيَّات بمراكزَ عصبيةٍ تَسِير كما لو كانت قادرة على التفكير الحكيم ، ومن المستحيل أن يُعَدَّ هذا التفكير من الأجهزة العُمْىِ ، ما دام العمل الذى تحمِل المراكزُ العَصَبِيَّةُ الخلِيَّاتِ على إنجازه يختلف فى كلِّ ثانية باختلاف ما يُسْعَى إليه من الأهداف وما يقاتَلُ من الأعداء .

ومما هو غيرُ مُفَسَّرٍ القُوَى التى كَوَّنَت الأعضاءَ فى الماضى فحُفِظَت هذه الأعضاء بالوِراثة ، ويقول علماء الطبيعة إن العضوَ وليدُ الاحتياج ، ولكنهم هل أنعموا النظر كثيراً فيما ينطوى عليه هذا الزَّعْم من قُوَّة الإبداع ؟ إننا نُدْرِك أن فَرْوَ الحيوان يَكِثُّ فى البلاد الباردة وأن جَناح الطائر يَنْمو بالاستعمال ، ولكن كيف أَوْجَدَ الاحتياجُ عُضْوَ سمكِ الجِمْنوتِ الكَهْرَبِيِّ أو عَيْنَ سمكِ القُمورِ الفُوسْفوريِّ ؟ فما أكثر المُعْضِلاتِ الفِيزْياوِيَّةَ والكيماوية التى تتَطَلَّب حلاً لإحداث مثل تلك الأعضاء ! وإذا كان الاحتياج قادراً على مثل ذلك التكوين فإنه يتألف منه آلهةٌ ذاتُ قدرةٍ تَقْضِى بالعجب .

ومما يُفَسَّر به ذلك هو ما يتراكم بالوِراثة من الاكتسابات ، ولكن هذا

لا يؤدى إلى غير تأجيل المُعْضِلة، فبأيَّة وسيلةٍ يحدُث كلٌّ واحدٍ من هذه الاكتسابات الصغيرة المتعاقبة ؟

يتكلَّم كثير من علماء الطبيعة الأقدمين والمعاصرين عن أهداف الطبيعة ، ومع ذلك يلوح من المشكوك فيه أن تكون الطبيعة قد سارت وراء أيِّ هدف ، أفيُفْتَرَض لها أيُّ هدف وهى التى تزيد جراثيمَ جميع الأمراض بلا تعب ؟ نعلم أن ميكْروب السلِّ الدَّرَنيِّ الهائلَ ، الذى أحدث فى الإنسانية من التخريب ما يعدِل التخريب الذى أحدثته الحروب مجتمعةً ، وُفِّقَ للنموِّ فى غلافٍ مُشمَّعٍ حافظٍ له تجاه سوائل الأعضاء ، أفيُفْتَرض أن الطبيعة جهَّزته بهذا السلاح ليُهْلِك به النوعَ البشريَّ ؟ ولا يُفْتَرَض أكثرُ من ذلك بأن يقال إن الخلايا المُزْدَرِدة (الفاغوسيتا) قد خُلِقَت لمكافحة الميكْروب ، فالواقعُ فى مثل هذه الأحوال أن الحوادث تخضع لسُنَنٍ عامَّة وتسيرُ بانتظام أعمى ، فالطبيعة لا تُفكِّر فى مساعدتنا ولا فى الإضرار بنا كما أن الآجُرَّة لا تهْدِف إلى شجِّ رؤوسنا إذا ما سقطت عليها .

وتدلُّ دراسة الحياة الفريزية على حوادثَ لا تُفسَّر ، مُشابِهةً فى ذلك حوادثَ الحياة العضوية ، فالحيوان يقوم بأعمال تثير حَيْرَة علماء الطبيعة فلا يُفسِّرها هؤلاء العلماء على العموم .

ويلوح أن جميع هذه الأعمال ، الخاصة بالحياة العُضْويَّة والحياة الفريزية ، تتضمن معرفةَ هدفٍ بعيد ، فهل مثلُ هذه المعرفة موجودٌ حقًّا ؟

لا يجوز ردُّ هذا الافتراض ، ولكنه يجب ألَّا يُرَى فى تلك المعرفة وجهُ صِلَةٍ بمبادىء ذكائنا ، ومن المحتمل أن أصاب مسيو بِرغسُن فى قوله إن ذُباب الفرَس الذى يَخْزُن بيْضَه على قوائم هذا الحيوان يعْرِف ، كما يلوح ، أن الفرَس إذا ما لحِسَ نفسَه نقَلَ الدُّودَ الناشئة إلى أنبُوبه الهضْمِيِّ حيث تستطيع أن تنمُوَ ،

ولكنه كيف يَعْرِف ذلك؟ وكيف يَعْرِف بعضُ الحشرات أن تَسْعَ دودةِ الفَراشةِ فى مكان مُعَيَّن منها يُبْطِل حركتَها من غيرقتلها فتنتظر ، غيرَ مُنْحَلَّةٍ ، زمنَ مجىء الدودة التى هى فى دَوْر التكوين فتفترسها ؟

ولا يَعْدُو حَدَّ الإيضاح الكلامىِّ أن يُحدَّث عن الوِجدان والعاطفة العَرَّافة الخ ، إيضاحاً لمثل تلك الحوادث ، فأمام تلك الحوادث يجب أن يُقْتَصر على القول بأن الخلايا والمراكز العصبية فى الموجودات ذاتُ وسائلَ للمعرفة غير التى نتصرَّف فيها .

ومن المُرَجَّح أن تكون طُرُق المعرفة تلك ملائمةً لطُرُز خاصَّة من الإحساس ، والإحساسُ إذا ماعُدَّ استعداداً لِرَدِّ الفعل بتأثير أحد المُحَرِّضات كان فى الغالب أعظمَ فى الأجسام المادية مما فى الأجسام ذات الحياة ، فالسِّلْكُ الدقيق فى مقياس درجة الحرارة الكَهْرَبِىِّ يأتى بِرَدِّ فعلٍ إذا ما صُدِم بشعاع ساطع لا تزيد حرارته على $\frac{1}{100000}$ من الدرجة الواحدة ، فإحساسٌ كهذا يُغيِّر شروطَ حياة الموجودات تغييراً تامًّا .

وبرغسُن ، إذْ يُصِرُّ مثلَنا على تَعَذُّر إدراك العقل لبعض الغرائز ، ولكن من غير أن يخضع لهذا التعذر ، يعتقد أن الغريزة تكون سَهْلَةَ المَنال للعقل « إذاما غَدَتْ باطنيةً بالمعرفة بدلاً من أن تكون باديةً بالعمل » ، فمن المؤسف أننا لا نَعْرِف وسيلةً لتحويل الغريزة إلى فكر ، أى إلى رَدِّها إلى نور الشعور .

ولو افترضنا إمكانَ ذلك ما أَلْقَى ذلك غيرَ نورٍ ضئيل على طبيعة أعمالِ الحياة العُضْوِيَّة ، ومن المشكوك فيه أن يُوَفَّق إلهٌ ، مُطَّلِعٌ على أسرار جهاز الحياة العضوية ، لتفسير هذه الحياة لنا ، فنحن نَعْرِف الأشياء بالمقايسة فقط ، وبماذا تقاس حوادث الحياة ؟ إنها لاتقاس إلاَّ بنفسها ، والقُوَى الحَيَوِيَّةُ إذ لاتقاس بشىء من المعلوم فإنه يتعذر إيضاحها أيضاً ، ونحن إذ ندرس الحوادث الحيوية فى

مظاهرها الفيزياوية الكيماوية كان تفسير هذه الحوادث سهلاً نسبيًا ، وذلك لما كان من تحديد هذه القوى قبلاً ، وفيما وراء ذلك يبدأ الليل الدامس .

ويمكن تطبيق مبدأ عدم إدراك حوادث الحياة على حوادث الذكاء أيضاً ، فكلاهما من طراز واحد كما يبدو ، ومن ذلك أن الغريزة التى تحدث النحلة بها نخروبها والتى تضع الدجاجة بها بيضها هى من نوع العمل غير الشعورى الذى يحل به أعاظم الرياضيين ، كهنرى پوانكاره ، عويص المسائل ، أو الذى يركب به مشاهير الملحنين ، كسان سانس ، اللحن المبتكر بعد أن يكونوا قد بحثوا عنه على غير جدوى ، ومن المحتمل أن يكون لجميع هذه الأجهزة تابعاً لسنن بسيطة نسبيًا ، ولكن هذه السنن تكون سهلة الإدراك عندما يكون ذكاؤنا قد تطور بما فيه الكفاية فى بضعة آلاف من السنين فاكتشف من الوسائل الجديدة ما يرود به الحوادث .

ونحن نستند إلى ترصد الحياة العضوية والحياة الغريزية فقط فنقول ، كنتيجة عامة ، إنه يوجد للمعارف وجوه تختلف اختلافاً تامًا عما يؤدى إليه العقل .

والحيوان إذ تسيره الغريزة ، والخلية إذ تتبع تطورها ، يكونان سائرين إلى هدف معين ، ونحن ، مع جهلنا مدى معرفتهما لهذا الهدف ، نعرف ، فقط ، أنهما يسيران كما لو كانا يقرءان مصايرهما بوضوح .

وهكذا ترانا مضطرين إلى توسيع تفسير كلمة المعرفة وإلى التسليم بوجود بعض وجوه لإدراك الحوادث مختلفة عن وجوه إدراكنا لحوادثنا ، وقد تكتشف هذه الوجوه ، ذات يوم ، على ما يحتمل ، ولكنها تبقى مجهولة حتى ذلك اليوم .

＊ ＊ ＊

انتهينا بالملاحظات السابقة إلى حدود المنطقة الواسعة للحقائق المجهولة ، فيكون عملنا قد تم إذن .

وتكون غاية هذا الكتاب قد وُصِل إليها لو عَلِمْنا أن نُوَسِّع على أوسع تركيبٍ تاريخَ الحقائق الكبرى التى وَجَّهت الناس منذ أصولهم البعيدة .

والطريقُ التى سار منها فِطْرِيُّو المغاور إلى المدن الحاضرة الساطعة كانت طويلةً خَطِرة ، وكانت الأشباح الوهمية دليلَ الإنسان عليها فى الغالب لاريب ، ولكن هذه الأشباح هى مصدرُ الآمال والجهود ، والأوهامُ التى تقود إحدى الأمم إذا ما تَبَدَّدت بسرعة أظلمَ مصيرُ هذه الأمة وَجَنَّ عليه الليل ، والبشريةُ القديمة لو اكْتَشَفَت أن حقائقها مُوَقَّتَةٌ غيرُ ثابتة ماسارت نحو مستقبل أطيبَ من حالها .

وينشأ عدم التسامح الذى لايزال شديدَ الوطأة على حياتنا الاجتماعية عن عدم إدرا كنا الشائع لسُنَن تطور النفس ، ومن شأن العلم الذى يكون من الاتساع ما يَرْجِع به إلى جُذُور الأمور أن يُؤَدِّىَ إلى الإدراك فإلى التسامح ، ومن شأن العلم القصير أن يُؤَدِّىَ إلى مِنْطقة المطْلَقِ الخيالىِّ الخطِرة حتماً ، فسِرْ من القرون الأولى إلى عهد محاكم التفتيش ، فإلى دَوْرِ الهوْل ، فإلى الاضطهادات الحاضرة تَجِد العالَم قد خَرَّبه فريقٌ من النظريين الذين وَقَفُوا أنفسهم فى دائرة أحلامهم المطلقة ظَانين أنهم حَمَلةُ الحقائق الأبدية ، ولا تَجِدُ فلسفةً وعلماً اجتماعياً يمكنهما أن يقوما قبل أن يُدْرِكا بوضوح ناحيةَ يقيننا النِّسْبِيَّةَ وسُنَن تكوينهما ، فهنالك يُعْتَرف بأن الحقائقَ النهائية غيرُ موجودة لدى الإنسان كما أن الموجوداتِ النهائيةَ غيرُ موجودة لدى الطبيعة .

ولليقين المسيطر على الأمور والمهيمن على التاريخ والمُسَيِّر للناس حياةٌ قصيرة جداً فى الغالب ، طويلةٌ فى بعض الأحيان ، ولكنها ليست خالدةً أبداً .

فهرس الموضوعات

مقدمة المترجم ... ... (٣ – ٤)

ديباجة المؤلف ... ... (٥ – ٨)

المقدمة

مرقاة الحقائق

١ . مبدأ الحقيقة – ٢ . تطور الحقائق – ٣ . شأن الافتراضات التى عدت من الحقائق ... ... (٩ – ١٨)

الباب الأول

دائرة اليقين الدينى ، الآلهة

الفصل الأول

أسس المعتقدات الدينية

١ . الأفكار الحاضرة فى تكوين الأديان – ٢ . العناصر الدينية والعاطفية فى المعتقدات الدينية – ٣ . العناصر العقلية فى المعتقدات الدينية – ٤ . العناصر الجمعية فى المعتقدات الدينية – ٥ . شأن الشعائر والرموز فى تكوين المعتقدات الدينية – ٦ . تشابه المعتقدات الدينية فى جميع الأمم ... ... (٢١ – ٣٧)

الفصل الثانى

مايعتور المعتقدات الدينية الفردية من التحولات حينما تصبح جمعية

١ . التحولات التى تعتور دين علماء اللاهوت حينما يصبح جمعياً – ٢ . كيف تفسر الأمم طبيعة آلهتها – ٣ . مايعتور الدين من التحولات حين انتقاله من أمة إلى أخرى ... ... (٣٩ – ٤٧)

الفصل الثالث

آلهة العالم القديم

١ . عبادات البشرية الأولى المفترضة ، الوثنية والطوطمية والروحية الخ . –

obeikandi.com

٣ . آلهة العالم الإغريقى الرومانى ـ ٣ . عبادة الأموات ـ ٤ . تأليه المجردات والأبطال ـ ٥ . الفؤول والهواتف ... ... (٤٩ ـ ٥٩)

الفصل الرابع

الأديان الكبرى التركيبية

النصرانية

١ . ظهور النصرانية ـ ٢ . تحولات النصرانية ـ ٣ . انتشار النصرانية بين الطبقات الشعبية ـ ٤ . انتشار النصرانية بين المثقفين ـ ٥ . النتائج غير المنتظرة لانتحال النصرانية ... ... (٦١ ـ ٧٥)

الفصل الخامس

كيف تنحل الديانات الكبرى

١ . الإلحادات والانفصالات ـ ٢ . تطور الآلهة ـ ٣ . تطور النصرانية نحو حرية الفكر فى الكنائس البروتستانية ـ ٤ . محاولات تحويل الكاثوليكية ، المذهب العصرى (٧٧ ـ ٨٧)

الفصل السادس

ظهور المعتقدات الجديدة

١ . الأسباب النفسية فى تكوين ديانات جديدة ـ ٢ . عناصر المعتقدات الجديدة ـ ٣ . ديانات جديدة نشأت عن تحول معتقدات قديمة ـ ٤ . ديانات جديدة لم تقتبس غير عناصر قليلة من المعتقدات القديمة ـ ٥ . المعتقدات السياسية ذات الشكل الدينى ـ ٦ . محاولات إقامة دين علمى (٨٩ ـ ١٠١)

الباب الثانى

دائرة اليقين العاطفى والجمعى

الأخلاق

الفصل الأول

تعريف الأخلاق

الخير والشر والفضيلة والرذيلة

١ . مايدور حول الأخلاق من الشكوك فى الوقت الحاضر ـ ٢ . تعريف الأخلاق ، الخير والشر ـ ٣ . الأخلاق الفردية والأخلاق الجمعية (١٠٥ ـ ١١٣)

obeikandl.com

الفصل الثانى

أخلاق المجتمعات الحيوانية والمجتمعات البشرية

١ . أخلاق المجتمعات الحيوانية ـ ٢ . أخلاق المجتمعات البشرية وتقلبها وثباتها (١١٥ ـ ١٢٢)

الفصل الثالث

العوامل الوهمية فى الأخلاق

١ . تقسيم أسس الأخلاق ـ ٢ . الدين والأخلاق ، مصادر الشعور الدينى والشعور الخلقى ـ ٣ . مبادئ مابعد الطبيعة فى الأخلاق ـ ٤ . أوهام علماء الأخلاق فى الفضيلة والرذيلة ـ ٥ . العلاقات بين التعليم والأخلاق ـ ٦ . ضعف قيمة الأخلاق القائمة على العقل والعلم (١٢٣ ـ ١٣٨)

الفصل الرابع

العوامل الحقيقية فى الأخلاق الجمعية

١ . العادة والرأى العام عاملان فى الأخلاق الجمعية ـ ٢ . مزج الأثرة الفردية بالمصلحة الاجتماعية ـ ٣ . تكوين الأخلاق فى زمر المجتمع الواحد المختلفة (١٣٩ ـ ١٤٨)

الفصل الخامس

العوامل الحقيقية فى الأخلاق الفردية

١ . تكوين الأخلاق الفردية وشأن الأخلاق ـ ٢ . الأخلاق الفردية الفطرية ـ ٣ . شأن المنفعة فى تكوين الأخلاق الفردية ـ ٤ . شأن اللاشعور فى تكوين الأخلاق الفردية ـ ٥ . الشعور بالشرف عنوان مثالى للأخلاق الفردية (١٤٩ ـ ١٦١)

الباب الثالث

دائرة الحقائق العقلية

الفلسفة والعلم

الفصل الأول

الفلسفات العقلية

١ . مبادئ الحقيقة لدى قدماء الفلاسفة العقليين ـ ٢ . مبادئ الحقيقة لدى الفلاسفة العقليين المعاصرين (١٦٥ ـ ١٧٢)

obeikandl.com

الفصل الثانى

الفلسفات الوجدانية

١ . الفلسفات العاطفية والدينية القديمة ـ ٢. بعث الفلسفة الوجدانية ـ ٣ . نوعا الوجدان : الوجدان العاطفى والوجدان العقلى (١٧٣ ـ ١٨٣)

الفصل الثالث

تطور الفلسفة النفعى

مذهب الذرائع (البراغماتية)

١ . فلسفة الذرائع ـ ٢ . شأن الغريزة فى فلسفة الذرائع (١٨٥ ـ ١٩٢)

الفصل الرابع

الآراء الحديثة فى قيمة الفلسفة

١ .الأسس النفسية للفلسفة ، آراء العلماء فى الفلسفة ـ ٢ .القيمة الحقيقية للفلسفة ، الروح الفلسفية (١٩٣ ـ ٢٠٠)

الفصل الخامس

بناء المعرفة العلمى

١ . التفسير العلمى للحوادث ـ ٢ . المعرفة الوصفية للحوادث ـ ٣ . الانتقال من الكيفى إلى الكمى ،قياس الصلات بين الحوادث ـ ٤ .شأن التجربة والترصد ـ ٥ . المناهج العلمية للبرهنة (٢٠١ ـ ٢١٥)

الفصل السادس

القوانين العلمية ونظريات الحوادث

١ . القوانين العلمية ودرجة صحتها ـ ٢ . النظريات العلمية الكبرى وشأنها ـ ٣ . مبادئ الكون العلمية ـ ٤ . الحدود المفترضة لما يمكن معرفته (٢١٧ ـ ٢٢٦)

الفصل السابع

الحقائق التى لاتزال ممتنعة

والوجوه المجهولة للمعرفة

١ : حدود معرفتنا للعالم الفيزياوى ـ ٢ .حدود معرفتنا لحوادث الحياة (٢٢٧ ـ ٢٣٥)

obeikandl.com

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣١	١١	قيـل	قليـل
٥٢	١٦	متماثلة	مماثلة
٦٣	١	القطيعة	الفظيعة
٩٩	٧	ملايين	الملايين
١١٢	٩	تظلُّ	تظلَّ
٢٠١	١٥	مَعْزَلٍ	مَعْزِلٍ
٢١٨	٨	ملاحظات	ملاحظة

obeikandl.com